(الفهرس)

محمد عابد الجابرى

المدرسة المغربية ووظيفتها الايديولوجية

1 — ملاحظات اولية :

يطرح الموضوع الذى نحن بصدد مناقشته اليوم(1) قضية هامة خاصة فى العصر الحاضر ، عصر الصراعات الايديولوجية . انها قضية الدور الايديولوجى الذى تلعبه المدرسة المغربية حاليا . وبعبارة أخرى ، المصالح الطبقية التى يخدمها نظامنا التعليمى الراهن ككل . ولعل بعضكم يتساءل : ما علاقة المدرسة بالايديولوجيا ؟ اليست المدرسة ، كما يقال عادة ، مؤسسة اجتماعية « محايدة » ، مهمتها تربية النشء وتعليمه واعداده لمواجهة الحياة ؟

الواقع أنه من السذاجة ، بل من الغفلة ، اعتبار المدرسة مؤسسة محايدة . فعلى الرغم من انها لا تكتسى طابعا حزبيا رسميا

1) محاضرة القيت بنادى جمعية الطفولة الشعبية يوم 18 — 6 — 75 بدعوة من الجمعية المذكورة .

ولا صبغة طبقية مكشوفة ، فانها كانت ، وما تزال ، جهازا للتأطير الايديولوجي : فمن خلال الهياكل التعليمية القائمة ، ومن خلال المناهج والكتب والاساليب التربوية المتبعة ، ومن خلال القوانين والتشريعات التي تنظم سير التعليم ، تتسرب الى المدرسة عناصر كثيرة واساسية من الايديولوجيا السائدة . هذا فضلا عن المواد الدراسية ذات الطابع الايديولوجي الواضح ، كالتربية الوطنية والتاريخ والفلسفة والعلوم الانسانية والمواد التراثية عامة . ان المدرسة في المجتمعات الحاضرة ، المتقدمة منها والمختلفة ، جهاز حيوي فعال تمارس بواسطته الطبقة الحاكمة سلطتها ، ربما بشكل اكثر عمقا واكثر تأثيرا من الاجهزة السلطوية الاخرى ، كالجيش والشرطة . ذلك لان سلطة المدرسة تنفذ الى الميادين التي لا تستطيع هذه الاجهزة السلطوية بلوغها والتأثير فيها . انها تعمل على توجيه تفكير الطفل وقولبة سلوكه منذ اللحظة التي يبدأ فيها في التفتح على الحياة بشكل واضح ومنظم .

وكما تخدم المدرسة ، بشكل مباشر وغير مباشر معا ، الايديولوجية السائدة في المجتمع ، وهي اساسا ايديولوجيا الطبقة الحاكمة ، يعكس النظام التعليمي ككل ، الوضعية الطبقية السائدة ، ويعمل على اعادة انتاجها باستمرار .

يتجلى ذلك ، في المجتمعات الراسمالية وفي البلدان « النامية » التي تسير في ركابها ، في عدة أمور ، منها :

ـــ الفصل التعسفي بين التعليم العام والتعليم المهني ، بين المعاهد النظرية والمعاهد التطبيقية ، بين الشعب الادبية والشعب العلمية ، فصلا لا يقوم على اعتبار الاستعدادات الفردية ، ولا حاجات البلد ومتطلبات التنمية ، كما يقال عادة ، بقدرما هو امتداد لظاهرة طبقية عامة ، ظاهرة الفصل بين العمل اليدوي والعمل

الفكرى . انه فصل يعكس فى الحقيقة والواقع ، انقسام المجتمع الى طبقات ، تحدد كل طبقة منها ، لابناء المنتمين اليها ، الطريق الذى سيسلكونه داخل النظام التعليمى وخارجه .

— اقامة الحواجز والعقبات بين التعليم الابتدائى والثانوى ، وبين هذا الاخير والتعليم العالى ، حواجز وعقبات تتسلسل من ابسط اساليب « المراقبة البيداغوجية » التى نظم الامتحانات والمباريات ، وتنطلق كلها من مبدأ « المنافسة » ، مبدأ « البقاء للاصلح . و « الاصلح » فى النظام الراسمالى ، وفى هذا المجال بالذات ، هو من تمكنه طبقته من الوسائل والامكانيات التى تساعده على اجتياز هذه الحواجز. ولذلك كانت الاغلبية الساحقة ممن يصلون الى ارقى درجات التعليم ، هم اولئك الذين ينتمون الى الطبقات الموسرة : الطبقة البورجوازية ، والطبقات المتوسطة .

— تركيز التعليم الثانوى والعالى ، والمعاهد المتخصصة كذلك ، فى كبريات المدن حيث تعيش الطبقات الموسرة هذه . ومن ثمة اغفال البادية اغفالا كبيرا ، حيث لا يتجاوز نصيبها من التعليم ، الفصول الاولية التى قليلا ما تصل ، او تتعدى ، قسم الشهادة الابتدائيـــة .

بهذه التدابير والاساليب ، وبغيرها من النظم المماثلة ، يعمل التعليم فى المجتمع الراسمالى ، على تكريس الوضعية الطبقية السائدة واعادة انتاجها بشكل ينمى الفوارق الطبقية ويعمقها ، ويقوى ، بالتالى ، سلطة الطبقة المسيطرة .

بعد تأكيد هذه الحقيقة ، وقبل تحليل نظامنا التعليمى الراهن على ضوئها ، نرى من المفيد القاء نظرة سريعة ، من هذا المنظور بالذات ، على النظام التعليمى الفرنسى ، الذى يعتبر تعليمنا الحالى امتدادا له ، وذيلا من ذيوله المتخلفة .

2 ـ المدرســة الرأسماليــة الفرنسيــة :

نشأ النظام التعليمي الفرنسي، كما هو معروف، كجزء من البنيات الفوقية لعلاقات الانتاج الرأسمالية . ان المدرسة الحديثة التي انشأتها البورجوازية الفرنسية فى القرن الثامن عشر كانت عبارة عن بديل للنظام التعليمي الكنسي الاقطاعي الذى ظل سائدا فى اوروبا طوال القرون الوسطى وبداية العصر الحديث ؛ بديل يخدم مصالح الطبقة البورجوازية ، واهدافها ، ويساهم فى النضال العام الذى شنته ضد النظام الاقطاعي وايديولوجيته . ومن ثمة استمرت المدرسة الفرنسية تساير النظام الرأسمالي وتواكب تطوره ، وتعمل على تلبية حاجاته من الايديولوجيين والتقنيين والاطر العاملة ، فى نفس الوقت الذى تقوم فيــه بنشر الايديولوجيا البورجوازيــة ، وتعميمها وفرضها على المجتمع كلــه .

هذا واقع تاريخي معروف لاتحتاج الى تفصيل القول فيه . ولذلك يكفي هنا ان نرسم بايجاز بعض معالم الصبغة الطبقيــة للمدرسة الفرنسية الراهنــة .

يضم الهيكل العام لنظام التعليــم فى فرنسا شبكتين مــن المــــــدارس (1) :

ـ شبكة المدارس الابتدائية ـ المهنية وتضم الاغلبية الساحقة من التلاميذ (ثلاثة ارباعهم) ، ووظيفتها الطبقية : اعادة انتاج البروليتاريا .

ـ شبكة المدارس الثانويــة والعالية ، اى الشبكة التــى

(1) اعتمدنا هنا بالخصوص على كتاب بودلى واستابلى ، وهو بعنــوان « المدرسة الرأسمالية فى فرنسا » .

تستقبل الاطفال « المحظوظين » فى الدراسية الابتدائية ليتابعوا طريقهم نحو التعليم العالى .

والوظيفة الطبقية لهذه الشبكة : اعادة انتاج البورجوازية .

ويرى بودلى واسيتايلى ان الفصل بين الشبكتين يتم بشكل عمودى انطلاقا من السنة الابتدائية الاولى (القسم التحضيرى) . ذلك لان النجاح او الفشل فى تعلم الكتابة والقراءة بالسرعة المطلوبة ، فى هذه السنة ، هو الذى يتحكم فى مصير الطفل : فاما ان يكون « ممتازا » فى القسم التحضيرى ، وحينئذ يشق طريقه بسهولة نحو المدارس الثانوية والمعاهد العليا ، واما ان يكون « متخلفا » او « متوسطا » (فى القسم التحضيرى) وحينئذ يكون مصيره هو الطريق الاخر ، الطريق الذى يسير به من الاقسام الابتدائية الى الاقسام المهنية لينتهى به المطاف الى العمل ، حيث يجد نفسه ذات يوم ، عاملا بروليتاريا مستغلا من طرف الطبقة البورجوازية ، المطعمة بعناصر جديدة ، هم اولئك الاطفال الذين كانوا يجلسون معه فى صف واحد عند دخولهم المدرسية اول مرة .

والنجاح او الفشل فى تعلم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ، فى القسم التحضيرى لا تتحكم فيه القدرات والاستعدادات الفردية ، البيولوجية والنفسية ، بقدرما تتحكم فيه الوضعية الاجتماعية والثقافية التى يعيش فيها الطفل ، اى الطبقة التى تنتمى اليها اسرته . ان هذا « الاصل » الطبقى هو الذى يتحكم ، الى حد بعيد ، فى « نبوغ » الطفل او عدم نبوغه .

وهذا شيء واضح : فالاسرة المنتمية الى الطبقة البورجوازية هي علاوة على ثروتها وامكانياتها المادية ، اسرة متفتحة في الاعم الاغلب ، وتتوفر على اوقات فراغ ، وعلى امكانيات مادية ومعنوية تمكنها من تهييء طفلها للدراسة الابتدائية (مدارس الحضانة) ، ومن مساعدته بمختلف الطرق والوسائل خلال مراحل دراسته ، الشيء الذي لا تملكه الاسرة الفقيرة ، الاسرة البروليتاريه التي يضطر الزوج والزوجة فيها الى العمل طول النهار من اجل كسب العيش مما يمنعها عن القيام بمراقبة الطفل في دراسته وتقديم المساعدات الضرورية له ، هذا علاوة على عدم توفرها على السكنى المناسبة ، وضعف مستواها الثقافي وجهلهما النسبي باساليب التربية المنزلية الحديثة .

هكذا يتضح ان الهيكل العام لنظام التعليم في فرنسا يعكس الوضعية الطبقية السائدة ويكرسها . انه تعليم يخدم الاطفال « المتازين » ابناء العائلات « الممتازة » ، ويعرض عن الاطفال الاخرين ، ابناء الاسر الفقيرة ، وذلك منذ السنة الابتدائيه الاولى اي منذ السنة الخامسة او السادسة من عمر الطفل . هكذا يتقرر مصير الطفل في الحياة بمجرد ان يبدأ في التفتح على الحياة : أطفال يلتحقون بالمدارس المهنيــة لينضموا الى البروليتاريا ، وهــم الاغلبية ، واطفال يواصلون دراستهم عبر الثانويات والمعاهــد العالية ، وهم الاقلية التي ستمد الطبقة البورجوازية التي ينتمون اليها بدم جديد وكفاءات جديدة . وبعبارة ماركس ، هناك مــن سيجدون انفسهم يوما مضطرين الى بيع قوة عملهم لكســب عيشهم ، وهناك من سيصبحون « موظفين للراسمال » ، مــالكين لزمام السلطة الاقتصادية والسياسية والتقنية .

جملة القول : ان الدور الطبقي ــ الايديولوجي الذي تقوم به المدرسة في المجتمع الراسمالي ، دور مزدوج ومتكامل :

1 — الفصل ، والتمييز ، بين طبقتين اجتماعيتين : الطبقة البورجوازيـــة ، والطبقة البروليتارية . اى اعــاده انتاج نفس العلاقات الاجتماعية الراسمالية ، على الرغم مما يحصل من تقدم فى قوى الانتاج (التقدم التكنولوجى لم يسفر لحد الان عن اى تغيير أساسى فى علاقات الانتاج ، ويجب ان يعزى للمدرسة دور اساسى فى هذا المجال ، لانها تعمل ، كما قلنا ، على اعاده انتاج نفس العلاقات الانتاجيه ، بشكل يساير التقدم الحاصل فى قوى الانتـــاج نفسهـــــــــــا) .

2 — نشر الايديولوجيا البورجوازيه وتعميمها واحلالها محل السيادة فى ثقافة المجتمع كله ، مع ادخال ما يلزم من التعديلات عليها . وذلك بنشر المفاهيم والقيـــم البورجوازية الليبراليــة ، ومحاربة الفكر التقدمـــى ، بمختلف الوسائل والاساليـــب ، وفى مقدمتها المواد الدراسية والكتب والبرامج .. الــخ .

وواضح من هذا ان المدرسة جهاز ايديولوجى فعال فى يد الدولة الراسمالية : انها تعكس الواقع الاجتماعى الراسمالى فى هيكلها العام ، وتعمل على تركيزه وترسيخه بنظمها ومناهجهـــا واساليبها . انها جهاز « حيوى » فعال ، لان تاثيره لا يقتصر ، كما قلنا سابقا ، على ميدان العلاقات الاجتماعية ، بل يتعدى ذلك الى حياة الفرد الخاصة ، الى توجيه الوعي وقولبة السلوك .

3 — الطابع الطبقى للتعليم الفرنسى فى المغرب :

بعد هذه اللمحة الموجزة عن الوظيفة الطبقية — الايديولوجية للمدرسة الفرنسية الراسمالية ، ننتقل الان الى التعليـــم الذى اقامته الحماية الفرنسية فى بلادنا ، والذى لا زلنا نحتفظ على ما هو

جوهرى فيه . ولنبدأ اولا بالتذكير ببعض المعطيات الاساسية فى الموضـــــــــوع :

الظاهرة الاستعمارية ظاهرة كلية ، اقتصادية واجتماعية وسياسيـــة وثقافية وبشريـــة . لقد غرست فرنســـا فى المغرب اقتصاديها الاستعمارى فى نفس الوقت الذى بدأت تشيد فيــه « دولتها » الراسمالية الاستعمارية ، فأنشأت هكذا ، فى بلادنا ، منذ اللحظة الاولى ، جهازا اداريا يخدم الراسمالية المغروس ، جهازا يعتمد المركزية والتدخل المباشر ، ويعمل على تكريس الوضع الطبقى السائد والمحافظة عليه ، والسير بنموه فى الاتجاه الذى يخدم مصالحها . والمهمة الاساسية ، بل الوحيدة ، لنظام التعليم « الحديث » الذى انشأته الحماية الفرنسية فى بلادنا ، هى خدمة الظاهرة الاستعمارية من جميع جوانبها ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسيــــة والثقافيــــة .

لقد بنت الحماية الفرنسية نظامها التعليمى فى بلادنا ، على اسس طبقية مكشوفة ، فانشأت ثلاثة انواع من المدارس :

— « مدارس اوربية » خاصة بابناء الاوربيين ، وهم فــى الاعم الاغلب فرنسيون . ومهمتها خدمة الوجود الاستيطانى — الراسمالى — الاستعمارى ، لفرنسا فى المغرب ، وذلك بانتاج ، واعادة انتاج ، القوة البشريـــة والتقنية المكلفة برعايـــة الظاهرة الاستعمارية وتعميقها وتوسيع مداها .

— « مدارس أبناء الاعيان » و «الثانويات الاسلامية » ، وهى مدارس مخصصة للنخبة المغربية (ابنـــاء الاعيان والوجهـــاء والموظفين المغاربة « الكبار » ، وأبناء كبار التجار والملاكين) . لقد كانت مهمة هذه المدارس ، أنتاج ، واعادة انتاج نفس النخبة واعداد الموظفين الصغار والمتوسطين ليقوموا بدور الوسيط بين

الحماية الفرنسية ، كادارة واقتصاد ، وبين « الاهالى » ، المواطنين المغاربة .

ــ « مدارس ابتدائية ــ مهنية » فى بعض المناطق الحضرية والقروية ، ومهمتها تكوين يد عاملة تخدم الاقتصاد الاستعمارى فى مختلف الميادين . (فى المناطق القروية مدارس « فلاحية » مهمتها امداد المعمرين باليد العاملة « المتعلمة » ، وفى المناطق الحضرية ، الصناعية والتجارية والادارية ، مدارس مهنية تمد المعامل الراسمالية الفرنسية بالعمال المدربين فى اشغال البناء والنجارة والصيد والملاحة ...) .

والى جانب هذه الانواع الثلاثة ، حاولت فرنسا انشاء نوع رابع ، هو : « المدارس الفرنسية البربرية » . وكان الغرض من هذه المدارس التى لم تعمر طويلا ــ باستثناء مدرسة ازرو ــ العمل على عزل سكان الاطلس وفصلهم ثقافيا وحضاريا عن بقية المغرب .

لكن خططت الحماية الفرنسية لتعليمها فى المغرب على هذا الاساس الطبقى الاستعمارى الواضح . يقول السيد هاردى مدير التعليم بالمغرب (1920) :

« ان تعليمنا ــ اى التعليم الفرنسى فى المغرب ــ سيمكن الصغار من الحصول على المفردات الضرورية للحياة العائلية والمهنية ، كما سيمكن الكبار عن اكتساب القدرة على تحرير الرسائل (رسائل المعاملات) ... ان هذه المبادىء التى تجب مراعاتها من اعلى الى اسفل فى سلك تعليمنا ستجد طريقها نحو التطبيق بواسطة المؤسسات التالية : للنخبة الاجتماعية ، مدارس ابناء الاعيان التى تعطى ، فقط ، تعليما اوليا ، وثانويات اسلامية تهىء للوظائف الادارية والتجارية . وللطبقات الشعبية فى المدن مدارس حضرية ، تعمل على اعداد اولى للمهن اليدوية ،

والنجباء من تلاميذها يوجهون الى المدارس المهنية . اما جماهير البادية ، فستكون لها مدارس قروية مزودة ببستين للتعليم والتطبيق ، تعمل على تلقين المعلومات الاولية في الفلاحة وتربية المواشي . والنجباء من تلاميذها يوجهون الى المدارس الحقلية . اما بالنسبة لسكان الشواطىء فستكون لهم مدارس خاصة بهم توجه الاطفال نحو الصيد والملاحة » (1)

اما عن « المدارس الفرنسية ــ البربرية » فيقول عنهما المسيو مارتي ، احد كبار الرؤوس الاستعمارية في المغرب : « انها مدارس فرنسية بالمعلمين بربرية بالتلاميذ . وليس فيهما اي مجال لاي وسيط اجنبي . ان اي شكل من اشكال تعليم العربية ، ان اي تدخل من جانب الفقيه ، ان اي مظهر من المظاهر الاسلامية ، لن يجد مكانه في هذه المدارس . بل سيقصى منها جميع ذلك ، بكل صرامة » (2)

واضح ، اذن ، ان ما فعلته البورجوازية الفرنسية في بلادها بشكل مقنع ، مستور مموه ، فعلته « دولتها » في المغرب ، بشكل عار ومفضوح . بل انها اضافت الى المضمون البورجوازي والتوجيه الراسمالي الذين يحملهما ــ اصلا ــ نظام تعليمها ، مضمونا استعماريا ، وتوجيها عنصريا .

يتجلى ذلك واضحا في الهيكل التعليمي العام ، والاساليب « التربوية » والمضمون الثقافي .

1 ـــ فمن حيث الهيكل العام ، حرصت الحماية الفرنسية على حصر التعليم في نطاق محدود جدا ، كما عملت على تنويع

1) للوقوف على تفاصيل اوفى في هذا الشأن ، انظر كتابنا : اضواء على مشكل التعليم بالمغرب ــ دار النشر المغربية ــ الدار البيضاء 1974 .
2) انظر التفاصيل في نفس المرجع .

مدارسه حسب الوضعية الطبقية ، قصد الابقاء على هذه الوضعية وتنميتها وتوسيع الشقة بين اطرافها . وهكذا فكما قسمت المغرب الى مغرب نافع ومغرب غير نافع ، وفصلت فى الاقتصاد المغربى بين « قطاع عصرى » و « قطاع تقليدى » ، وكما حاولت عـــزل « العرب » عن « البربر » ، وفصل البادية عن المدينة ، عملت على انشاء نظام تعليمى متنوع بتنوع هذه الميادين نفسها ، محافظة فى نفس الوقت على بقايا التعليم المغربى القديم ، فى شكله المنحط ، حتى يتسنى لها تكريس الازدواج فى الثقافة واللغة والفكر ، وبالتالى خلق تيار ثقافى تقليدى (او على الاقل المحافظة عليه) ، وتيار ثقافى « عصرى » مشدود الى الثقافة الفرنسية خصوصا ، والثقافـــة الغربيـــــة عمـــــوما .

2 ــ اما من حيث الاساليب « التربوية » فلقد اعتمـــدت الادارة الاستعمارية اسلوبا سلطويا فى التعليم ، كان امتدادا لسلطة المستعمر الغاصب . لقـــد كانت سلطة المعلـــم فى القسم سلطـــة مضاعفة : هناك اولا سلطته المادية والمعنوية بوصفه معلما تكون فى « المدرسة التربوية الفرنسية » ذات الطابع السلطوى الواضح ، ثم هناك ثانيا ، سلطته كفرنسى ، اى كرجل يمثل الحماية الفرنسية فى القسم وازاء الاطفال ، كشخص يجسم امامه اولاد « الاهالى » الجهاز الاستعمارى الحاكم . ان كلمة « مسيو » الذى يلفظ بهـــا الطفل عند الحديث عن ــ او مع ــ معلمه الفرنسى ، تحمل فى ذهنه من معانى السلطة ضعف ما تحمله كلمة « فقيه » او « استاذ » التى يتحدث بها عن معلمه العربى . اضف الى ذلك سلطة المدير والمفتش وسلطة « مقدم الحى » الذى كان يسوق الاطفال بالقوة الى مدارس الحماية عندما قررت الجماهير الشعبية مقاطعتها فى اطار النضال ضد الظاهرة الاستعمارية ككل . وباختصار لقد كان التعليم الفرنسى فى المغرب تعليما سلطويا يبعث الرعب والخوف فى نفوس الاطفال ،

ويعمل على قولبة سلوكهم وتعليب وعيهم .. وتعويدهم الطاعة والخضوع والاستسلام .

3 — واما من حيث المضمون ، فلقد كان التعليم الفرنسي في بلادنا ، يحرص بشكل واضح ، على تاطير التلاميذ تاطيرا ايديولوجيا محكما ، تاطيرا مستمدا من الايديولوجيا البورجوازية ، وخاصة من وجهها الشرس العدواني ، وهكذا ، فمادة التاريخ مثلا كانت كلها اشادة بفرنسا و « عظمتها » ، مثلها في ذلك مثل مادة المطالعة والادب التي كانت نصوصها تختار من الادبيات البورجوازية الاستعمارية ، في حين كانت دروس الحساب مركزة اساسا حول العمليات الاولية وقواعد الربح والفائدة وعن ذلك من القواعد التي تستعمل في المعاملات والحسابات التجارية الراسمالية . اضف الى ذلك كله ، الاشادة باللغة الفرنسية وتحقير اللغة العربية ، ومحاربة الفكر الوطني والتقدمي .

والنتيجة المتوخاة من كل ذلك : تركيز « التفوق الفرنسي » في عقول الاطفال المغاربة ، وجعلهم يشعرون بالنقص ازاء انفسهم ولغتهم وثقافتهم ووجودهم الحضاري ، وربطهم بلغة المستعمر وثقافته ربطا آليا . انه الاستلاب في افظع مظاهره .

4 — « المدرسة المغربية » الراهنة :

تلك كانت ، بالاجمال ، الاهداف الايديولوجية ، والمصالح الطبقية والاستعمارية المباشرة ، التي انشئت من اجلها « المدرسة الفرنسية » في المغرب ، فما هي التغييرات والتطورات التي داخلتها بعد الاستقلال ؟

لقد اكدنا ، قبل ، على كلية الظاهرة الاستعمارية ، اي على ارتباط الهياكل الاستعمارية ، الاقتصادية والادارية والتعليمية ، بعضها ببعض ، ارتباطا عضويا . وبما ان بلادنا لم تعرف بعد اي

تغيير جذري يحول الهياكل الاستعمارية الى هياكل جديدة ، هياكل دولة وطنية ، تقدمية وشعبية ، فان التعليم الذي اقامته فيها الحماية الفرنسية ما زال يحتفظ بنفس البنيات والاساليب والمضمون ، مع تغييرات بسيطة سطحية لا تمس جوهره ولا اسســـه .

نعم ، لقد تمت « مغربة » البرامج والمناهج ، و « مغربت » اطر التعليم الابتدائي كله ، ولكن ، فقط ، بالشكل الذي « مغربت » به الادارة ، و « يمغرب » به الاقتصاد . انها « المغربة » التـــي تحتفظ بالجوهر ، وتكتفي بتغيير الاسماء والمظاهر . وهكذا فكما تحول الاقتصـــاد الاستعماري والادارة الاستعمارية الـــى ايدي « المحظوظين » من المغاربة الذين احتلوا مناصب الاجنبي ، ونصبوا انفسهم وكـــلاء للراسمالية الغربية ، والفرنسية منهـــا خاصة ، محافظين هكذا على نفس البنيات التي اقامها المستعمر ، وعلـــى نفس العلاقات الاجتماعية التي تاسست عليها هذه البنيات ، تحول تاعيمنا كذلك ، من تعليم يخدم اهداف المستعمر ومصالحه ، الـــى تعليم يخدم الطبقة الاجتماعية التي حلت محله ، للنيابة عنه في خدمة الراسمالية العالمية والايديولوجيـــا الامبرياليـــة .

ان تعليمنا الان ، هيكلا واسلوبا ومضمونا ، صورة ، لا نقول طبق الاصل ، بل صورة مشوهة ومتخلفة من التعليم في فرنسا ، تماما مثلما ان البورجوازية المغربية التي يخدمها هذا التعليم ، هـــي صورة متخلفة وهجينة من البورجوازية الفرنسية . **ان « المدرسة المغربية » الراهنة مدرسة راسمالية متخلفة ، تعكس في تخلفها ، تخلف « الراسمالية المغربية » وبورجوازيتها الطفيلية الهجينة .**

يتجلى ذلك من عدة معطيات لعل اهمها ، ما يلـــي :

1 ــ اذا نظرنا الى الهيكل العام لنظام التعليم القائم حاليا في المغرب ، وجدناه هيكلا ضعيفا ، مضطرب البنية ، مفكك الاوصال ، مليئا بالثقوب والثغرات . وهكذا فاذا كان التعليم في فرنسا ، يضم

كما قلنا شبكتين من المدارس ، تعملان على استيعاب جميع الاطفال البالغين سن الدراسة ــ مع تمديد فترة الدراسة الاجبارية الى 16 سنة ــ فان هيكل تعليمنا لا يشتمل الا على شبكة واحدة ضيقة لا تضم سوى ثلث البالغين سن الدراسة الابتدائية (الاطفال الذين تتراوح اعمارهم بين 7 سنوات و 11 سنة) . انها شبكة ملأى بالثقوب والثغرات ، فلا تحتفظ بين طياتها ، من بداية الدراسة الابتدائية الى نهاية الدراسة الثانوية ، الا على نسبة ضئيلة : خمسة فى المائة فقط من تلاميذ التحضيرى يصلون الى قسم الباكالوريا . أما الاخرون ، وهم الاغلبية الساحقة (95 ٪) فيضيعون كلهم فى الطريق ابتداء من نقطة الانطلاق .

ان عجز البورجوازية المغربية عن القيام بالدور التاريخى الذى قامت به مثيلاتها فى اوروبا ، وخاصة فى ميدان التصنيع ، ثم ان تقاعس الدولة او عجزها عن القيام بهذه المهمة فى اطار تصميمات متتابعة متكاملة تستهدف التصنيع الشامل ، واقتصار نشاطها على « اقتصاديات » التصدير والسياحة ــ وهو عجز ناتج عن هيمنة البورجوازية المذكورة على دواليب الادارة والاقتصاد عن طريق « المغربة » ، كل ذلك جعل الاغلبية الساحقة من اطفالنا الذين يغادرون المدرسة قبل اتمام المرحلة الثانوية ، بل الابتدائية ، لا يجدون امامهم غير الشارع مصيرا لهم . **ان الشارع يشكل « الشبكة » الثانية ، الشبكة الاعظم** ، ومن ثمة يمكن القول ، انه اذا كان التعليم فى فرنسا يعمل على اعادة انتاج البورجوازية المتطورة ، والبروليناريا المتخصصة ، فان التعليم فى المغرب يعمل من جهته على اعادة انتاج فئة قليلة من « المحظوظين » الذين تستعملهم الطبقة السائدة فى مجالات اقتصادها المتخلف ، وفئات واسعة من العاطلين والمشردين الذين يعملون كل سنة على تضخيم حجم « اللومبن بروليتاريا » ، اى جماهير المسحوقين والعاطلين . ان انعدام التصنيع الحقيقى والاصلاح الزراعى الفعلى ، والاقتصار

على استغلال الهياكل الاقتصادية التي تركها الاستعمار ، استغلالا متخلفا ، دون تطوير ، بل حتى بدون رعاية ، قد جعل امكانيات التشغيل ضعيفة او منعدمة ، وبالتالي جعل المدارس المهنية غير ذات موضوع . لقد صفى التعليم التقني والمهني الذي تم انشاء بعض هياكله في اطار التصميم الخماسي الاول ، عندما تقرر العدول عن الاهداف التي كان يرمي اليها هـذا التصميم ، اهداف التحـرر الاقتصادي والتصنيع الحقيقي . واذا كان تعليمنا الحالي يحتفظ ببعض المعاهد الفنية العليا ، فما ذلك الا لان الاقتصاد الكولونيالي الـذي « يمغرب » يحتاج ، لكي يحافظ علـى ارتباطه وتبعيتـه بالاقتصاد الراسمالي في اوروبا ، الى اطر متخصصة ، قادرة على التعامل في مستوى التطور الذي بلغه هذا الاخير .

2 ـ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان الالتحاق بالشبكة الاولى ، شبكة المدارس الابتدائية والثانوية او بـ « الشبكة الثانية » شبكة الشارع والبطالة والتشرد ، لا يتحكم فيه ، فقط ، النجاح او الفشل في تعلـم القراءة والكتابـة ومبادىء الحساب ، في السنـة الابتدائية الاولى ، كما هو الشأن في النظام التعليمي الفرنسي ، بـل تتحكم فيه ، قبل ذلك ، عدة عوامل متداخلة ، متكاملة ، ترجع ، في نهاية الامر الى وضعية الاسرة وموقعها على الخارطة الطبقيـة بالمجتمع المغربي . وهكذا تتوقف خظوظ الطفل في الالتحام بالمدرسة اصلا ، على محل سكنى اسرته (في البادية ام في المدينة ، في الاحياء الشعبية ام في الاحياء التي تقطنها الطبقات الغنية والمتوسطة) ، وعلى امكانياتها المادية (هل تستطيع الاستغناء عنه كـ « عامل منتج » ، كخادم في المنزل او الدكان او كراع للغنم ؟ هل تستطيع اداء « واجبات » الدراسة في المدارس الحرة ؟ وما نوع هذه المدارس الحرة لتي تستطيع طرق أبوابها ... ؟ الـــخ) ، ويبقى بعد ذلك كله ان مواصلة الطفل للدراسة او انقطاعه عنها ، بعد شهور او سنة ، او سنوات ، تتوقف ، هي الاخرى ، على عدد من

للعوامل المماثلة ، على مدى قدرة الاسرة على النفقة عليه وتمكينه من الضروريات التى تستلزمها الدراسة على مدى استغنائها عنه كـ « عامل » شبه متعلم ، وعلى مدى قدرتها الفكرية والتربوية على مساعدته فى البيت ، على نوع هذا البيت ، وعدد افراده ، وعدد اطفاله ... الى غير ذلك من الشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تحددها الوضعية الطبقية للاسرة .

كل هذه العوامل والظروف جعلت تعليمنا بعد الاستقلال يتجه ، اكثر فاكثر ، ليكون تعليم بنخبة ضيقة ، تفصلها مسافات شاسعة عن بقية الشعب ، مثلما ان البورجوازية المغربية تتجه بعد الاستقلال الى الطريق الذى يجعل منها فئة قليلة العدد ، فاحشة الثراء ، تعيش حياة استهلاكية فى مستوى حياة اعلى قمة فى البورجوازية الغربية ، وبالتالى تفصلها عن حياة الشعب مسافات شاسعة عميقة ، تزداد اتساعا وعمقا مع مرور الايام .

3 ـ هذا فيما يتعلق بالهيكل العام لنظام تعليمنا الراهن ، بالارضية الطبقية التى يتغذى منها ويغذيها ، بالعوامل التى تحدد حجمه وتقرر علاقة الاطفال به . واذا انتقلنا الان الى داخل « اروقة » هذا التعليم ، فان اول ما سيلفت انتباهنا هو ذلك **الاسلوب السلطوى المسيطر فى مختلف مجالات الحياة المدرسية عندنا** . انه اسلوب ورثناه من نظامنا التعليمى القديم « الكتاب » وطعمناه بما اخذناه من « المدرسة التربوية الفرنسية » ذات الطابع السلطوى الواضح ، ومما احتفظنا به ، وهو كثير ، من الاساليب والطرق التى استعملتها الحماية الفرنسية .

ولا نحتاج هنا الى الحديث عن المظهر السلطوى البارز فى تعليمنا التقليدى ، فلا زالت صورة الفقيه الذى يرفع باحدى يديه عصى طويلة على رؤوس الاطفال الصغار والمحدث « المهيب »

الذى يفوه بـــ « الحقيقة » فى جمع من الجالســين المنصتين « وكان على رؤوسهم الطير » ، لانه وحده يملك « الحقيقة » ، لا زال ذلك كله ما ثلا امام اعيننا اليوم . كما اننا لا نحتاج كذلك الى تحليل مختلف مظاهر السلطة التى كان يمارسها جهاز التعليم ورجاله على اطفالنا خلال عهد الحماية ، فقد اشرنا الى ذلك قبل ، وابرزنا تلك السلطة المضاعفة التى كان يمارسها « المسيو » على اطفالنــا الصغار ، سواء كان معلما او مديرا او مجرد « مراقب للمرور » على الطرقات . لنكتف بالقول ، اذن ، ان المعلم الذى يحمل وراء ظهره هذا الارث الضخم ، والذى يعيش فى مجتمع يعانى من ظاهرة تعميم القمع ، لن يجد سبيلا « للسيطرة » على قسم يضم ما بين 50 و 60 طفلا — وغالبا ما يكون ناقص الخبرة والتكوين — غير طريق واحد هو ممارسته السلطة والارهاب والعنف على هذا العدد العديد من « الصغار المشاغبين » . ان العقاب البدنى ، بالضرب او بحـــمل الاطفال على رفع الايـــدى على الجدار ، او اخراجهم من القسم ، مع ما قد يرافق ذلك كله من سب وشتم ، مظهر اساسى من المظاهر التى لا تخلو منها « الحياة » المدرسية عندنا . انها نفس السلطة التى يمارسها على المعلم ، بشكل او بآخر ، كل من المدير والمفتش ، وجميع من هم فوقه فى السلـــم الادارى . ان المعلم عندنا ظالم فى القسم ، مظلوم خارجه ، **وتلك احدى مظاهر القمع المعمم فى هذه البلاد .**

والى جانب هذا القمع المادى الذى تمارسه المستويـــات « العليـــا » على المستويات الدنيا فى نظام تعليمنا ، هناك قمـــع معنوى آخر تمارسه الاجهزة التعليمية بعضها على بعض ، من اعلى الى اسفل . ان المعلم يتلقى الاوامر من المدير او المفتش ، وعليه ان ينفذها دون مناقشة او ابداء راى حتى ولو كان الامر يتعلـــق بمجال عمله الخاص ، والمدير والمفتش كلاهما مكلفان بتنفيذ الاوامر الصادرة اليهما دون مناقشة حتى ولو كانا مقتنعين بعدم صلاحيتها ،

(2)

بل وبلا معقوليتها . ان « الحقيقة » دائما تصدر من اعلى ، فهل يجوز ان نطالب المعلم ، بعد هذا ، بسلوك طريقة فى تعليم الاطفال غير طريقة التلقين والاستعلاء . ان له هو ايضا « حقيقة » يملكها وحده ، هى الدروس والمعلومات التى يمليها عليهم ويطالبهم بحفظها . ان على الاطفال ، اذن ، ان يتلقوا « العلم » و « المعرفة » من المعلم دون مناقشة او مشاركة من جانبهم ، وعليهم ان يحفظوا « الملخصات » عن ظهر قلب ، وبدون فهم فى غالب الاحيان ، اذا هم ارادوا الافلات من العقاب المزدوج ، العقاب المادى والعقاب المعنوى (الامتحانات) . على ان للمعلم بعض « العذر » فى هذا المجال ، فالبرامج والمناهج مثقلة بمواد الحفظ التى تستوجب اعتماد اسلوب التلقين ، وحشو الذهن بالمعلومات ، وهو مطالب بانهائها حسب لائحة رسمية هى التوزيع الاسبوعى والشهرى والسنوى ، والا تعرض هو نفسه للعقاب .

4 — ان الاسلوب السلطوى المهيمن فى مجال التطبيق ، مجال العلاقات المشخصة فى نظامنا التعليمى ، نجده يمتد ، وبشكل خطير ، الى مجال الفكر . يتعلق الامر هنا خاصة بالايديولوجيا التى يخدمها ويرسخها تعليمنا الراهن . ولكى ندرك ابعاد هذه الايديولوجيا ومصادرها المختلفة ، لابد من ملاحظة ما يلى :

— ان الطبقة البورجوازية المغربية التى نشأت وترعرعت فى احضان الاقتصاد الاستعمارى ، والتى تحرص الآن ، ومنذ سنوات على « مغربة » تركة الحماية الفرنسية ، طبقة هجينة لا تتوفر على جذور وطنية ، ولا على ماض بورجوازى ثورى . انها لم تتشكل محليا حسب قوانين التطور الذاتى للمجتمع المغربى ، لم تتم كنقيض للاقطاع ، كما حدث فى اوروبا ، وبالتالى فهى لا تتوفر على تقاليد ليبرالية راسخة ، ولا على ميول عقلانية علمانية صريحة . ان عجزها البنيوى عن حمل الايديولوجيا البورجوازية الليبرالية بكامل

ابعادها ، نظرا لتكوينها الهجين الخاص ، وارتباطها بالفئات الاقطاعية أيام الحلف الوطنى الذى قام ضد الحكم الاجنبى ، وشعورها حاليا بالحاجة الى مساندة القوى الرجعية المتخلفة لمواجهة القوى التقدمية الصاعدة ، كل ذلك جعلها تتبنى الفكر الاقطاعي كغطاء ايديولوجي تحاول تغليفه ، من حين لآخر ، بأغلفة ليبرالية .

ان الفكر الذى يهدد هذه الطبقة البورجوازية ، هو ، بلا مراء الفكر الثورى ، الفكر الاشتراكى العلمى . وبما انها لا تستطيع حمل الفكر الليبرالى بكامله ، ولا تقدر على استيعابه وتمثله ، ولا على تلوينه حسب الحاجة ، فانها تحتمى بالايديولوجيا الاقطاعية وتتخذ منها سلاحا ضد الفكر التقدمى ، سواء كان نابعا من تراثنا الوطنى العربى الاسلامى ، او كان امتدادا للفكر التقدمى العالمى . ومن هنا كانت ايديولوجيتها عبارة عن خليط من العناصر الرجعية فى الفكر الليبرالى المنقول الينا عبر قنوات التبعية الثقافية والاعلامية ومن العناصر المتخلفة المنحطة فى فكرنا التقليدى . ان عدم قدرتها على تبنى الايديولوجيا الليبرالية ، بكامل ابعادها المقلانية والعلمانية نظرا للاسباب التى ذكرنا ، ثم ان وضعيتها كبورجوازية لا يمكنها تحقيق مصالحها عن طريق القبول التام وباخلاص ، للفكر الاقطاعى ، جعلاها تضطر الى الاقتباس من هذا وذاك حسب الظروف ، وحسب تطور مصالحها الطبقية .

ــ واذن ، فعملية التأطير الايديولوجي التى يقوم بها نظامنا التعليمي عملية متوترة ، ارهابية ، بفعل التناقضات التى اشرنا اليها انها عمليةتستند تارة الى الفكر الليبرالى الغربى ، ولكن بخجل وتحفظ ، وتارة الى الفكر التقليدى الرجعى ، ولكن بكثير من التردد وبدافع المصلحة الوقتية فقط . هذا ما يفسر التقلبات التى عرفها التعليم فى بلادنا : (العمل على تصفية التعليم الاصلي ، ثم العودة

الى احيائه وانعاشه ، تغيير البرامج والمناهج باستمرار ، انعدام اية سياسة تعليمية قارة فى مجالات التوحيد والتعريب والتكوين ..) بهذه العملية تحرص الطبقة المسيرة على اعادة انتاج نفس الوضعية السائدة بكل تناقضاتها لانها لا تستطيع العيش الا فى اطار هذه التناقضات التى تحاول تغطيتها بالجمع الكاذب بين « الاصالة والمعاصرة » .

هناك ، اذن ، تاطير راسمالى ، بورجوازى ، متخلف ، يعمل على اعادة انتاج نفس البورجوازية الهجينة الحالية بالشكل الذى يؤهلها لان تواصل القيام بدور الوكيل والوسيط للامبرياليه العالمية وتطوراتها التقنية ، واداته كل ما هو « عصرى » و « معاصر » فى تعليمنا ، اى كل ما يمكن ادراجه فى اطار المعاصرة : (المواد العلمية ، الشعب التقنية والمتخصصة ، المدارس الحرة « النموذجية » ، مدارس البعثة ... الخ)

وهناك ، فى نفس الوقت ، وفى نفس النظم والهياكل والاساليب تاطير ذو مضمون اقطاعى ، مهمته القيام بدور « الحصارات » للجانب « العصرى » للحيلولة دونه ودون بلوغ الابعاد « الثورية » للايديولوجيا البورجوازية من جهة ، واعادة انتاج نفس الفكر التقليدى الاقطاعى لاستعماله فى مقاومة الافكار التقدمية ، من جهة اخرى . واداة هذا التاطير الاقطاعى والشبه الاقطاعى هو التعليم الاصلى بمختلف فروعه ، والمواد التراثية فى التعليم العصرى نفسه . وهكذا فباسم « الاصالة » المزعومة ، يستغل تراثنا العربى الاسلامى استغلالا رجعيا يجعل منه « الحاجز الواقى » ضد ما هو تقدمى وثورى فى الفكر المعاصر ، بل وفى الفكر الاسلامى نفسه . ان الجمع بين « الاصالة » و « المعاصرة » بهذا الشكل ، جمع تلفيقى توفيقى ، الهدف منه خدمة اغراض ايديولوجية واضحة الاغراض التى تحدثنا عنها قبل ...

وبالنظر الى هذه المعطيات جميعها ، وبالنظر كذلك الى تشابكها وتداخلها ، يتبين ان المدرسة المغربية الراهنة ، هي عبارة عن جهاز بورجوازى بمضمون اقطاعــى .

هى جهاز بورجوازى (مدارس عصريــة ، مواد عصريه ، اساليب « عصرية ») يكرس الوضعية الطبقية السائدة من خلال تركيبه العلم الذى تحدثنا عنه وعن انتاجيته ، ولكن مع الاحتفاظ بنفس المضمــون الاقطاعى الذى اشرنا اليــه ؛ والذى تتخــذه « البورجوازية المغربية » ودولتها « الليبرالية » غطاء ايديولوجيا لها ؛ وسلاحا تواجه به الفكر التقدمي وتطلعات الاجيال الصاعدة . يتجلى هذا المضمون الاقطاعي في الاساليب السلطوية التى تحدثنا عن بعض مظاهرها ، وبكيفية خاصة في الايديولوجيا السلطوية الارهابية ؛ ايديولوجيا الطاعة والاستسلام التى تعمل البرامج الدراسية على تركيزها بواسطة بعض المواد كالتاريخ والتربية الوطنية والنصوص التراثية التى تستغل استغلالا رجعيا ؛ انتقائيا لا تاريخيا . هذا بالاضافة الى الوسائل الاعلامية المكملة لدور المدرسة ، وعلى راسها الاحاديث الاذاعية وبعض النشرات المعروفة (الجــرائــــــد ، مجــــــلات) .

* * *

واضح مما تقدم ان المدرسة المغربية الراهنة تعكس الوضعية العامة السائدة ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، في نفس الوقت الذى تعمل فيه على تكريس هذه الوضعية وتعميقها واعطائها طابع الاستمــــــرار .

ولكن هذا جانب واحد من الصورة ، وهناك جانب آخر ، الجانب النقيض . نعم ، ان لكــل اطروحة نقيض . ومــن صلب المدرسة تخرج باستمرار قوى الرفض والتغيير .

من مدارس الحماية الفرنسية في المغرب تخرجت افواج من الشباب قادت طليعة الحماية واسترجاع السيادة ، افواج اندمجت في العمل الوطني وساهمت في قيادته وتوجيهه وجهة الكفاح ولقد نجح العمل الوطني في افشال جزء هام من المخطط التعليمي الاستعماري ، وتمكن من استقطاب عدد كبير من الاطر المتعلمة ، حتى تلك التي تنتمي الى عائلات بورجوازية ، فكان لها دور كبير في حركة التحرير الشعبية التي خاضها شعبنا ضد الاستعمار الفرنسي والاسباني بل ان الحركة الوطنية ، انما بدأت عمليا في المؤسسات التعليمية ، في القرويين بفاس ، وكلية ابن يوسف بمراكش ، وفي الثانويات الاسلامية والمدارس الحرة ، ومن هنالك انطلقت الى البيوت والشوارع لتلتحم بجماهير الشعب ، جماهير العمال والفلاحين التي اعطتها بعدا جديدا ، بعد النضال الملموس والمقاومة المسلحة .

واذا كان التاريخ لا يعيد نفسه ، فان للاحداث التاريخية ، وتسلسلها وتطورها ، قوانين موضوعية ، ومنطق واضح . ولذلك فليس من قبيل الصدفة ان تبدأ التحركات الاعتراضية ، عقب الاستقلال ، في ابواب مدارسنا بالذات . وليس قبيل الصدفة ان يكون الطلبة والتلاميذ في طليعة الجماهير المناضلة من اجل استكمال التحرير واقرار الديمقراطية وتشييد الاشتراكية ، طوال العشرين سنة التي مضت الآن على الاعتراف باستقلال بلادنا .

وهل نحتاج هنا الى التذكير بنضالات الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ، وبنضالات تلامذة الثانويات ؟ لقد لعب الطلاب والتلاميذ ورجال التعليم من معلمين واساتذة دورا طلائعيا في النضالات اليومية التي خاضتها وتخوضها جماهير شعبنا الكادح ، وكثيرا ما كان اعتراض الطلبة والتلاميذ على قرار جزئي يخص عنصر تعليمنا منطلقا لنضالات جماهيرية اوسع ، ذات طابع سياسي واجتماعي

الحقيقة ، من يظن ان التحركات الاعتراضية التى يقوم بها التلاميذ والطلبة من حين لآخر ، تحركات « طائشة » معزولة من « تدبير المشوشين » . كلا ، انها شكل من اشكال الصراع الاجتماعى ، والنضال الطبقى . **ان قضية التعليم وقضية الخبز فى هذا العصر ، وفى بلادنا بالذات ، هى قضية واحدة . ان من يملك الخبز يستطيع ان يتعلم ، ومن تعلم يستطيع ان يملك الخبز . والنضال من اجل التعليم والخبز نضال ضد طبقة واحدة ، الطبقة التى تحتكر الاقتصاد والعلم والثقافة .**

واذلك ، فالنضال من اجل تعميم التعليم ودمقراطيته ، هو جزء لا يتجزأ من النضال العام الذى يخوضه شعبنا من اجل الديمقراطية الفعلية والعدالة الاجتماعية الحقة .

والنضال من اجل تعريب التعليم واعطائه طابعا قوميا تقدميا هو جزء لا يتجزأ من النضال العام الذى يخوضه الشباب والمثقفون الثوريون ضد الايديولوجيا الهجينة السائدة ، الايديولوجيا التى تحاول أن تجمع ، باسم « الاصالة والمعاصرة » بين ما هو رجعي فى تراثنا ، وما هو سطحى ومتخلف فى الايديولوجيا البورجوازية .

انه نضال ضد طبقة مستغلة ، وايديولوجيا تمعية . نضال سينتصر لامحالة ، لانه يعبر عن حركة التاريخ ويجسم مسيرته . ولا شك أن مما سيعجل من انتصاره هو المزيد من الالتحام بين نضال المدرسة ونضال المعمل والحقل بين نضال الطلبة والمثقفين ونضال العمال والفلاحين .

جميـل ابـو صبيـــح

عاشق تحت غيوم تشرين

اهواك .. لـو سعف النخيل رصاصـة تفتات عظـم الجمجمة ،
مشبـوحـة في سقـف دار المـوت
مشغول الفؤاد بماء نارك ، ارتمى شلوا يجرجر خطوة مكدودة ..
قسـاب .. بين اظافـر البـرد انحسـار الظـل .. تاريخـا
لاشتـات المـدائـن ، ــ
قـد امـاتـك بـالتشهـي راس جسـر .. آه
مـا اقسـى التشهـي في هزيـم الملحمـة

* * *

الـدار دارك .. رسـم شعـب رافـض
لا غابـة السـرو القريبـة تحتويـه
لا الاسـرة ،
لا ارتعـاشـات النهـود البيـض
لا الارض المـوتى ..

ـ اتشفمين النب !!؟ .. لا ـ
لا باحة الغرف الرتيبة
الارض ارضك .. جلدى المسلوخ مفروش امامك
ارفعيه ..
او طايه ..
بعض لون النار طين .. يحمل الشرر المزركش بالصبايا الورد
اعمدة الخيام له السوارى
سترينني فى لجة المحيا علم !

* * *

فى مهدك ارتعشت خيوط الضوء
امك لم تقطر فى دماغك اي شيء من عصير الثدي
لم تحمل بلفك فى القماط الابيض
انتحلت دماغا غير معروف
اتاك الجن حبوا ..
مارد النهر انتضى قرن الضحية
هش عن عينيك اسراب الذباب وانت تستلقين فوق جبينه
الممتد فى الآفاق ..
تمتدين عمر الدهر سوسنة
امشط شعرها الجبلى
مشط صارخ الالوان ، تعبيره الصوفيه والشولتى
والمفاوز ملء جفنك .. غيمة ترتاح فى الافق البعيدة
لعلها دست مجانيف الهدنية تحنيت رمتشتلك ..
افتحى دولابك المرشوش بنزينا

وغطى طرحة الفرح المؤمل .. هل ترين سوى العظام تشنجت !!
مـــن آيـــن يأتـــى البـــرق خاتمـــة المطاف وبين كفـــى اللعينـــة
غادرتنـــى ليلـــة القـــــدر
ارتطمـــت بجلـــد محفظتـــى وعـــدت بـــلا نقـــود
اشتهـــى لـــــون الحقيقـــــة
هـــل تريـــن على جـــدار القدس باراباــاس يلهـــث !!
هـــل تريـــن القـــدس فى دقيقـــة !!
القـــدس ـــ عاشقـــة تجـــدف فى خليـــج الاوبئـــة
مجدافهـــا زنجيـــة مصفـــودة
وعشيقهـــا تبحـــوه فـــوق الجلجلـــة
هـــل تسمعيـــن انينـــه
هـــل تسمعـــين حنينـــــه
القـــدس تسعـــل فى الخليـــج الاوبئـــة

* * *

نـــاداك خـــوف الخـــائفيـــن
تشبثـــوا بالـــوهـــــم ،
بـــالمسحـــاة تحثـــو الـــرمـــل فى قبـــر السنيـــن ..

دمشـــق ـــ جميـــل ابـــو صبيـــح

عبد الرزاق الدواي

معنى الاستلاب وتجاوزه في اطار النظرية الماركسية

1 ــ لقد ظهرت نظرية الاستلاب الماركسية الى الوجود ، من خلال اشكالية فلسفية مثالية (هيجل) ، ونزعة انسانية مجردة (فويرباخ) وتاثرت بالتيارات الاشتراكية ونظريات الاقتصاد السياسى السائدة فى القرن التاسع عشر . وقد استطاع ماركس بعد ان قام بتحليل نقدى لمفهوم الاستلاب عند كل من هيجل وفويرباخ ، ان يبرز الجوانب الايجابية عند كل واحد من هذين المفكرين : الجانب الجدلى والتاريخى عند هيجل ، بعد ان خلصه من طابعه المثالى ، مستبدلا قوة الفكر المطلق ومسيرة المفاهيم بقوة وعمل البشر - والجانب المادى والانسانى عند فويرباخ ، بعد ان « اعاد » الانسان المجرد والمفصول عن التاريخ ، الى الواقع والى المجتمع والى التاريخ . فدخلت نظرية الاستلاب فى اطار مادى جدلى وتاريخى .

واذا كانت بعض المصطلحات والمفاهيم الخاصة بهذه النظرية ذات اصل هيجيلى ، فمن المؤكد انها فى اطار الاشكالية الجديدة الماركسية قد كفت عن ان تعبر عن نفس الوقائع وعن نفس الدلالات ونقلت المواضيع ..

ولا جدال فى ان الانسان فى سياق النظرية الماركسية هو المعانى للاستلاب ، ولكن التركيز على الانسان لم يؤد الى اللجوء الى ((طبيعة)) انسانية غيبية او الى ما هية مسبقة ، لتفسير ظاهرة الاستلاب . بل انطلقت هذه النظرية من الشروط التاريخية الملموسة لوجود الانسان ، ووضعت مفهوم الاستلاب فى اطاره التاريخى والاجتماعى . فكف عن ان يظل ، كمـا اراده بعض الفلاسفة ، قدرا وجوديا وصفة ((خالدة)) ملازمة للانسان .

ان الاستلاب هو فصل الانتاج عن المنتج ، ويجب التركيز بصفة خاصة على فكرة الانتاج ، لانه ، فى كل الحالات التى نتكلم فيها عن استلاب ، هناك شىء ما انفصل عن منتجه وخالقه وصار يشكل بالنسبة اليه شيئا غريبا . ومن الضرورى ايضا ان توسع فكرة الانتاج ، فالانسان لا ينتج فقط اشياء للاستهلاك ، انه ينتج ايضا افكارا ونظريات ومؤسسات اجتماعية ، وعلاقات اجتماعية وسياسية ، وهو يستلب فى كل هذه المجالات . هناك استلاب اذن ، فى كل مرة ينفصل عن الانسان انتاجه او يتحول ضده ، سواء فى المجال الايديولوجى او الاقتصادى او الاجتماعى .

2 — يعبر مفهوم الاستلاب فى اطار الاشكالية الماركسية عن حالة تناقض واقعى وبؤس واقعى للطبقة العاملة فى العالم المعاصر داخل نمط الانتاج الرأسمالى . تضطر الطبقة البروليتارية وليدة هذا النظام للانتاج الى بيع قوة عملها فى سـوق العرض والطلب ، كسلعة متقاضية مقابلها اجرا . وبواسطة هذه القوة الحيويـة تنتج القيمة الزائدة التى تنمى راس المال وتبخس ثمن ((السلعة)) الاولـى المنتجـة .

ويؤدى عرض قوة العمل كسلعة ، ايضا ، الى عرض انتـاج العمل كسلعة فاقدة لقيمتهـا الاستعمالية المباشرة ، ومكتسبة لقيمة تبادلية مجردة ، ومفصولة فصلا تاما عن العامل

وكانها بالنسبة اليه شيء خارجي . تستغل الطبقة البروليتاريا اذن من طرف راس المال الذى فتجه وتنميه قوة عملها ، انه انتاجها ولكنه ينتصب امامها كقوة مستقلة ، غريبة ومسيطرة تفرض سيطرتها وقوانينها على المجتمع باسره .

لقد وصف ماركس فى المخطوطات (1844) عمل البروليتاريا المتسلب فى نمط الانتاج الراسمالى بانــه اصبح عملا اجباريــا والوسيلة الوحيدة للحياة وسببا للانخطاط المعنوى والمادى بالنسبة للمنتجين ، كما انه أصبح مصدر ثروة لاولائك الذين لا يعملون . وقد عمق هذا المفهوم فى راس المال ، عندما اظهر ان وسائل الانتاج التى يحتكرها قسم معين من المجتمع تصبح وكانها مستقلة أمام قوى العمل الحية ، وان انتاج العمل لا يتحول وحده الى قوة مستقلة ومسيطرة علــى المنتجين ، بــل ان العلاقــات الاجتماعية ، كصور لهذا العمل ، تتخذ مظهر هذا الانتاج نفسه وتصبح كانهــا علاقات بين أشياء . ويوازى هــذه الاشكــال الاستلابية ، استلاب آخر هو استلاب الوعى فى الايديولوجيا ، تعبير مخفي لتناقضات الواقع ، متاخر او متقدم عنه ، وتبريــر مصلحى وطبقى للاوضــاع ، وتشيوء مفهــوم الزمان والتطور ، واللجوء الى مطلقات وهميــة .

3 ـــ ويصف لنا ماركس فى هذه العبارة المختصرة والدقيقة معنى الاستلاب ومعنى الغاء الاستلاب . يقــول : « ... ان سلسلة من العمليات التاريخية ادت الى فصل الوحدة البدائيــة التى كانت قائمة بين العمال ووسائل العمل (...) الى ان تاتى ثــورة جديدة (...) تعيــد الوحدة البدائيــة فى شكل تاريخــى جديــــد » (1) .

والثورة الجديدة التى ستلغى استلاب الطبقة العاملة فى

---

(1) - KARL MARX. Salaires Prix et Profit - Paris, E. Sociales 1955, page 29.

نمط الانتاج الراسمالي تتطلب توفر شروط معينة . ان الغاء الاستلاب مسالة عملية تستدعي شروطا عملية وموضوعية ، من بين هذه الشروط ، ان يبلغ الاستلاب درجة قصوى لا يمكن احتمالها ، تجعل الاغلبية الساحقة من الناس جماهير محرومة من الشروط الضرورية للحياة ومفصولة عن انتاجها في عالم لا يكف عن تكديس الثورة واحتكار الثقافة . ومن ناحية اخرى ، ان يصل التقدم التقني والعملي ، وبالتالي قوى الانتاج المادية ، الى درجة كبيرة من التطور ، بحيث تسمح ، في حالة القضاء على العوائق اللاطبيعية وعلى الاحتكارات الطبقية، بتحقيق شروط حياة انسانية لجميع افراد المجتمـــــع.

يقول ماركس وانجلز في الايديولوجية الالمانية ص : 51 :

« ... ولا يمكن الغاء هذا الاستـــلاب الا بتوفر شرطين عمليين : ان يصبح قوة لا يمكن ان تحتمل ، اى قوة تستدعي قيام الثورة ، وان تكـــون هذه القوة قد جعلت الاغلبيـــة من الناس « محرومة من الملكية » ، وفي نفس الوقت في تناقض مع عالم واقعي من الثورة والثقافة . ويتطلب تحقق هذين الشرطين نموا كبيرا لقوى النتاج ، اى درجة عظيمة من التقدم والنمو » .

واضح ، انه في حالة عدم توفر هذين الشرطين ، سيكون معنى الغاء الاستلاب هو « تعميم » الحرمان والفقر بدلا من تعميم الثورة والثقافة . وواضح ايضا ان المجتمع البرجوازي يتوفر على ظروف تحقق هذين الشرطين . ان هذا المجتمع قد وصل الى تطوير قوى الانتاج المادية درجة يمكن ان تتحقق معها حياة انسانية مزدهرة . كما انه في نفس الوقت ، قد فصل المنتجين عن وسائل الانتاج محرمهم من الشروط الضرورية للحياة . في عبارة اخرى ، ان المجتمع البرجوازي يمثل الدرجة القصوى من الاستلاب ، وفي نفس الوقت الشروط الضرورية للتحرر الايجابي للانسان .

هل تحقق الغاء الاستلاب الاقتصادى فى البلدان التى عرفت ثورات ضد البرجوازية واقامت انظمة اشتراكية ؟ ان الغاء الاستلاب الاقتصادى فى مجتمع ما ، يفترض بالاضافة الى الشرطين السابقين ان هذا المجتمع قد قطع كل المراحل الضرورية لذلك ، ومن بين هذه المراحل ، الغاء الملكية الفردية لوسائل الانتاج ، والغاء ، او على الاقل التخفيف من التفرقة بين العمل النظرى والعمل اليدوى ، وتقليل الفروق بين المدينة والبادية . وتحقق هذه المراحل يتطلب ثورة علمية وتقنية جد متقدمة ومسخرة لمصلحة المجتمع باسره ، الامر الذى لا يمكن ان نؤكد انه قد تحقق تماما فى المجتمعات الاشتراكية التى نعرفها اليوم ، والتى ما تزال تمر بالمرحلة الاولى من الاشتراكية . (1) ولكن ما تحقق لحد الآن فى هذه البلدان يعتبر تقدما كبيرا للانسان وتحررا عظيما من الاستغلال الاقتصـــــــادى .

4 ــ وبالنسبة للاستلاب فى مستوى الوعى ، فان الغاءه يعنى ان يتكون لدى الناس وعى واضح وجدلى ، بفعاليتهم الخاصة وبانتاجات هذه الفعالية المختلفة ، وان تصبح العلاقات الاجتماعية واضحة و « شفافة » . اذ الاستلاب ليس هو الوعى بالحرمان بقدر ما هو انحرمان من الوعى (2) . ان الهدف من تحرير الوعى الانسانى من الاستلاب ، هو كما يقول ماركس ان نجعل العالم يكف عن الحلم وان « ... نفسر له فعاليته الخاصة (...) وسيصبح من الواضح أن العالم قد حلم باشياء كثيرة بما فيه الكفاية ، يجب ان يحققها حتى يملكها واقعيــا » (3) .

ومن بين هذه الاشياء الكثيرة التى طالما حلم بها الانسان ، ان يكف انتاجه والمؤسسات الاجتماعية التى خلقها عن ان تظل

(1) - V. Leduc, in **l'aliénation aujourd'hui**, op. cit. p. 120.
(2) - Alain Tourain. Production de la société. Paris, Seuil, 1973, p. 201.
(3) - K Marx. **Le 18 Brumiaire de Louis Bonaparte**, Paris, E. Sociales. 1956. p. 128.

قوى مستقلة تسخره وتستعبده . ان استلاب عمل الانسان وفكره وعلاقاته الاجتماعية ناتج عن « الاوثان » التى تولدت عن مختلف ممارساته الاجتماعيـــة .

لقد شكلت الثورة والثقافة والدولة دائما تناقضات اساسية مزقت الواقع الانسانى ، ولا يتصور الغاء الاستلاب بدون قضاء تدريجى على سيطرة هذه الاوثان ، يوازيه تملك الانسان التدريجى لقواة التى حولتها هذه الاوثان ضده . وليست الثورة فى حد ذاتها شرا ، انها اكتمال للانسان ودليل على تطور حضارته ، والدولـــة هى ايضا قوة منظمة ، والثقافة ابرز صورة للوعى والحياة . ولا يعنى الغاء الاستلاب ، القضاء النهائى على هذه المؤسسات بقدر ما يعنى تقريبها من الانسان ، بدلا من ان تبقى « كيانات » مستقلة ومصادر الاستغلال والتسخير .

ولا شك ان طريق تحقق وعى انسانى غير منفصل عـــــن الممارسة ومدرك لقوانين التطور التاريخى والاجتماعى ، هو طريق كما يقول ماركس ، شاق وطويل . فالضباب الايديولوجى والصوفى الذى يغشى الحياة الاجتماعية لا يمكن ان يتبدد الا « ... عندما تظهر الى الوجود اعمال اناس مشتركين عن حرية ومتصرفين عن وعى ومتحكمين فى حركتهم الاجتماعية ، ويتطلب كل ذلك توفر مجموعة من شروط مادية للوجود لا يمكن ان تتحقق الا بعد تطور شـــاق وطويـــــــل » (1) .

ان تحقق بعض هذه الشروط فى بعض الدول الاشتراكية لا يعنى ان علاقات الانتاج فى هذه الدول اصبحت تظهر بوضوح لوعى الافراد . ان الغاء الملكية الفردية والتعميم الاجتماعى للانتاج لا يتبعـــه مباشرة وبكيفية تلقائية وعى واضـــح وشفاف للعلاقات الاجتماعية . ان مثل هذا الوعى « ... لا يمكن ان يتحقق بدون

---

(1) - MARX, Le Capital, Œuvres, 1 op. cit. p. 91.

ممارسة ثقافية وايديولوجية وتربوية وسيكولوجية ، تمتهد بالطبع على واقع النظام الاشتراكي الـذى يجب ان يعترف للانسان بحاجياتـه الاصليـة » (1) .

وهل سيصبح الوعى متحررا وواضحا تملما عندما تتحقق كل هذه الشروط ؟ لا يجب ان ننتظر من نظرية مادية وتاريخيه ان تتنبأ لنا بشكل الوعى الذى سيكون «« نهاية »» للتاريخ ، ان نظرية الاستلاب الماركسية تتحدث عن الوعى الممكن لمرحلة تاريخية معينة هى مرحلة تجاوز الانتاج الراسمالى ، وبالنسبة لهذا الوعى الممكن يمكن ان نقول فقط بان مجتمع المستقبل الاشتراكى سيقضى على الاقل على الحدود الطبقية للوعى ، ولن يعنى هذا اطلاقا تحرير الوعى من حدوده التاريخية . لان الوعى ، وهذه فرضية اساسية للماديـة التاريخية ، فى مجتمع الغى فيـه الاستلاب الاقتصادى واستغلال الانسان للانسان ، سيبقى رغم ذلك وعيا محددا بمستوى تاريخى للتطور وبحاجيات هذه المرحلة .

5 ـــ حقا ، لـن يكف الانسان عـن تجاوز استلاباته وان «« تاريخ الاستلاب هو فى نفس الوقت تاريخ لالغاء الاستلاب »» (2) ولكن لا يجب ان يفسر هذا الطموح الدائم للانسان لتجاوز وضعياته المستلبة ، باستلاب «« اصلى »» مكون لطبيعته ذاتها . ان الانسان لا يتجاوز دائما نفس الاستلابات ، بل يناضل فى سبيل الغاء اشكال تاريخية معينة من الاستلابات ولا يعنى هذا بتاتا ان الغد لن يحمل استلابـات جديـدة .

ان التفسير الاصلى والماهوى للاستلاب يعرقل المجهـود النضالى الذى يبذل من اجل الغاء الاستغلال الاقتصادى والاستلابات النفسية ـــ الاجتماعية المرتبطة به . ان النضال ضد الاستغلال

(1) - L. Alexandre· «Contribution au sujet de deux concepts clés : L'aliénation et l'idéologie «Colloque Lénine», Paris, 1971, documents ronéotyés.
(2) - K. Marx. **Manuscrits..** Œuvres 1. op. cit. p. 76.

الاقتصادى وضد الاستلاب الايديولوجى يساهم بدون شك ، إن لم نقل فى الغاء ، على الاقل فى تخفيف شكل الاستلاب الذى خلقته المرحلة الراسمالية الراهنة .

واذا جازلنا أن نتحدث عن « أصل » انثربولوجى للاستلاب ، فيجب ان يكون كلامنا فى سياق جدلى ، مادى وتاريخى ، لا فى اطار غيبى ميتافزيقى ومستسلم . وهناك محاولة موفقة ظهرت فى هذا الاتجاه ، هى محاولة جورج لابساد ، التى سعت لاقامـــة انثربولوجية جدلية انطلاقا من فرضية ان عدم اكتمال الانسان INACHEVEMENT هو الاصل فى سعيه الجدلى لتجــاوز استلاباته ، وفى محاولاته الدائمة* « للدخول الى الحياة » ككائن راشد وكامل . فاذا كان من نتائج عدم اكتمال الانسان ضرورة استلابه ، فان عدم الاكتمال نفسه هو الحافز الجدلى لتجــاوز الاستـــلاب . (1)

الربـــاط ــ عبـــد الرزاق الـــدواى

---

(1) - G. Lapassade, **L'entrée dans la vie- Essai sur l'inachèvement de l'homme**, Paris, Minuit 1969, p. 38.

* يستعمل (الابساد) مصطلح «Entrisme» للدلالة على الحركـــة الدائمة التى يبذلها الانسان للدخول الى الحياة ككائن راشد وكامل ، ويماثلها بنظرية « الثورة الدائمة » لليون تروتسكى (ص. 244) .

مزيلتوس

اليك اوجه الخطاب يا امريكا

ترجمة : ادريس الشروشني

اليك اوجه الكلام ، اجل ! اليك اوجه الكلام
اديم النظر فى عينيك القلقتين
اديم النظر فى وجهك المضىء الذى لم تخضبه المساحيق .
انى لا اخاطب امريكيا الروكيز والبطش
ولا التى ترعى الجرائم والتهريب
ولا تلك الساحرة التى تقيم سهرات السبت مع الشيطان
من اجل الملايير
ولكن اخاطبك انت يا امريكا ، بلد البسطاء .
يعود فتيانك وفتياتك من العمل .
من المكاتب
من المصانع
فتنبعث الحياة فى الطرق والمحطات والحافلات
وتنتعش المدينة كلها بالشباب من الفتيان والفتيات
وتكونين قد وضعت حقائبك على القطار

تكونين انت فى انتظارهم بينما يقترب النهار من نهايته
ورتبت الاوانى اللامعة فوق المنديـل الصقيل
ميأتـون وهاهـم قـد حضروا .
يتنـاول صغيرهـم عشـاءه بسرعـة
بينمـا اخوتـه يمزحون منـه ويضايقونـه
ثـم يبعـد عنـه صحنـه
وينهـــض .
فيمرر مشطـه المبلول على خصـلات شعره الثائرة
وتريـن فى المرآة وجهـه المكتنـز
وجهـه المحبوب الذى تعرفينـه جيـدا ،
الذى تعرفينه أكثر من كل شىء آخر فى العالـم
لكـن ، هـا على وجـه الفتى ، وجـه الرجـل
قد ارتسمت تقاسيم جديدة تعكس الغرابة والقسوة
انك تعرفين هذا مسبقا وتدركينه ولكنك لا تنثين ببنت شفة
ــ يحييـك بيـا اماه !
ثـم يذهـب .
وفى ساعـة متاخـرة
بعـد انغمـاس افـراد عائلتـك فى النـوم
وانتهائك من التنضيـد والغسـل
تتوجهين بخطى خفية نحـو الشرفة الصغيرة
فيمـد نحوك غصن صغيـر تخاريمـه
وتسطع حولك ، فى ليلـة مايـو ، حرارة الارض ورطوبتها
فتضمـخ الهـواء بعطرهـا الدافـىء .
اتـذكريـن ؟
ان كـل ليفـة مـن كيانـك تتذكـر
وترن كما يرن كمان خفى بنحيب ممزق ودائم
وفى ليلـة كهذه فى ليلـة مائى ستعيش
ولكـن مـع ذلـك قريبـة منـا وكلاهمـا امضى

ضمك اليه ورفعك نحوه
موج السعادة الذى لا يفهو .
كانت هذه هى المرة الاولى
وكان الرجل الحبيب قريبا جدا .... كتفه .... شعره
اصابعكما المتشابكة
وقلباكما الاثنان
مثل طائرين عظيمين
اسكرهما الفضاء
وهما على استعداد لكسر
جدران قفصهما
وللانطلاق نحو السماوات العلى .
والآن ! نعم ! قد اتى دور صغيرك المدلل :
كان ، ايضا ، يتموج نفس العطر ، عطر الارض الحار الرطب
وكان غصن الليلك الشفافه
يشع
كمصدر نور .
كان الوقت ليلا
فالام ما زالت هنا بالشرفة
متكئة على جدار الدار المتواضعة
الدار التى تقيدهما نفسا نفسا
بعد عدة اعوام من الجهد والمعاناة
دارهما حيث راى النور الولد الصغير
الام ، هنا ، وسط عالمها الصغير
مفكرة فى لحظات السعادة العابرة
التى انتزعتها من يد الفقر والمرض
وفى حياتهم المضطربة المهددة
ثم مرت فوق وجهها فجأة سحابة
محت الابتسامة التى ارتسمت عليه منذ قليل .

ما مآل كل عزيز عليها ؟
ماذا يريدون ان يفعلوا بعالمها الصغير ؟
عالمها الصغير
وسطه يقوم البيت
داخل البيت قلبها
مثل الثمرة
داخل الثمرة بزرات متحانيات
لماذا يريدون ان يصدعوا هذه الثمرة ؟
لماذا يريدون ان ينثروا شظايا قلبها
فوق بحار من الدم عبر بلدان نائية ؟
من ؟ من يا ترى
يمكن ان يريد هذا ؟
امواج الاذاعة والجرائد
تقول معولة فى كل مهب ريح
« سنسكتهم .
ثمة وراء المحيطات
سيعلمون من نحن
سيعلمون باى حطب تستدفىء امريكا ! »
« ثمة » ينبع الشيوخ والجنرالات
« ثمة » تحرض اللافتات وصفائح الاعلان
« ثمة » تصيح الاغانى والشعارات
وكل يمد الاصبع نحو « ثمة »
نحو البلدان النائية ، نحو اوروبا
« ثمة » احذرى يا امريكا
تهيأ لك القنبلة الذرية
وتتهيأ اوروبا لتثب عليك
وتكسر جذور لياليك للغنى
وتبدد قلبتك شمماطمتا

لنسبقهـــــــم اذن
لنجعـل مـن ارضهـم صحـراء شـاسـعـة
لكـى يتمكـن عنـدك ، فى بستانـك الليلـك
مـن الازدهـار ، مـرة اخـرى كـل ربيـع
امـاه ! يـا امـاه !
يـا امريكـا البسطـاء !
قـد التـف حولـك الكـذب
وانـت لا تشعريـن
ان الكـذب يستقـر عنـدك كضيـف
ينـزل فى بيتـك ويجلـس حـول مـائـدتـك
ويمـلأ بطنـه بمـا تمتلـىء بـه صحونـك
وانـت لا ترينـه
هـو يحضـن صغـاره الانـذال
تحـت قواعـد بيتـك
وانـت لا تعلميـن
ان الكـذب يقيـم تحـت اسـرة صبيانـك
وانـت لا ترتعديـن
فى هـذه الساعـة ، ساعـة السكينـة التى ينـام فيهـا الكـل
تجلسيـن علـى المقعـد الذى يسهـر بمدخـل بيتـك
وراحتـاك الخشنتـان اللتـان يطبعهمـا الكـد
برتاحـان فـوق ركبتيـك
وعينـاك الوديعتـان القلقتـان
تدقـق النظـر فى ثنـايـا ليـل مـاى الشفـاف
فى هـذه الساعـة استسلمـى لنـور
الاحـلام الـذى يغمـرك
قـارات شاسعـة تطفـو
فـوق محيطـات زرقـاء ، مظلمـة مـن كوكبنـا
مثـل ورقـات ضخمـة مـن الزمـرد

بقاع شاسعة ، بحار عظيمة
تنعكس فى قمر انسان عينيك
وتتزاحم وتتزاحم وتتجمع
كما يروى فى الخرافات الدائمة الحقيقة
التى سمعناها فى صبانا
تتزاحم وتتجمع
حتى لكانها تكتفى لقيامها بالدولة نفسها .
جزيرة صغير
حديقة صغيرة جدا
شجرة
منبع
وسط دار
بها اسرة
وحولها سطح
ما قدر المسافات ؟
ما امتداد المحيطات ؟
الازمنة التى نعيشها تمضى على كل هذا
وهم وخرافة
اوربا هنا قريبة
وبالضبط قبالتك
جارة
دار مجاورة
امراة جارة
لا تعرفينها
وثمة ايضا هذه المراة العجوز
التى لا تقدر على النوم
وها هى تفتح بابها
وتنسل الى الخارج

انهـا حلـوة ، ليلـة مـاى الشفافـية هـذه
ومـع ذلـك فالمـرأة ترتعـد
وتشـد خمـارهـا الصـوفـى
وتشـع وجنتاهـا الواسعتـان
حـول كتفيهـا المثلثتيـن القويتيـن
ويلمـع شعرهـا المعقوص ، تحت ضـوء القمـر المنسـدل
وترتعـد شفتاهـا المكتنزتـان وهمـا منفرجتـان قليـلا
ويختلـج قلبهـا .
اى رؤى فظيعـة قد طـردت عنهـا النـوم
ورمـت بهـا خـارج البيـت فى الليـل
اى حلـم مرعـب قـد تمثـل لهـا
ويحـى ! ويحـى ! انـا التـى اعـرف هـذا
ويحـى ! انـا التى اسمـع هـذا الصـوت الباطنـى
هـذا الصوت الملح الذى يقول آمرا : « اشهر به ! »
مـن هـو فى الحقيقة الكائـن الذى يقـدر ان يكشـف
عـن مثـل هـذه الفظاعـة
مـن غير ان يشعـر هـو نفسـه بتقـزز
ويتحـول الـى قطعـة الام
كـان هـذا منـذ اعـوام
قبـل هـذا الحلـم
قبـل هـذه الليـلة
سبـق للمـرأة ان كـان لهـا زوج
رجـل ذو تقـاسيـم قـاسيـة
وايـد واسعـة وحليمـة
لقـد رزقـت طفـلا
كـالاطفـال
عندمـا يبلغـون سنـة وزيـادة
سمينـا

وشيئا ما يثير منظره الضحك
له رجلان متقوستان قايلا
وهو حسب ظنها
اجمل فتيان العالم .
كانت لها غرفة
جدرانها مزدانة بالصور
وكان لها دولاب تحتفظ فيه ، مع باقي ثيابها ،
تحت باقة من الريحان ،
بقميص وليد
رقبته مزينة بالاكاليل .
وكانت لها سعادة بريئة ،
تتخللها هموم ،
عندما حلت الحرب
وذهب زوجها جنديا مع الجنود
لقد توصلت منه برسائل قصيرة ، مشجعة :
« لا تقلقي يا حبيبتي ! سأعود »
كانت تعمل في مصنع
وفي المساء تلتقي في البيت
مع امها العجوز وطفلها الصغير
وكان الليلك يزهر في زقاقهم
لكن وا أسفاه ! ليس من اجلها
ثم حلت الحرب
قريبة
وبدات تدنو منها باستمرار
واندلع شواظها في زقاقهم
وتقدمت بفكيها الفولاذيين المنفرجين
باعثة عويل صفارات الانذار الطويل
ويوما بعد الاستنفار

بينما كانت عائدة ، وهى تعدو ، من العمل
لم يبق فى منتهى الشارع
شىء
شىء آخر
سوى صيحه تتفتت منها الاكباد
لقد صرعها
برق اسود
هى بذاتها ، برق أسود
فانهارت متمايلة
فى هاوية ليل
ثم حلت اللحظة
التى لمست فيها قبو الظلمات
وصرت اظفارها فوق التراب والرماد
لا احد يقدر على ان يمنعها من النبش
وتمتمت تقول : « اريد ، اريد
لا تحرمونى من هذه المتعة
من يمكن أن يتضرر منها »
وكانت تنظر اليكم
ببسمة مستعطفة وتائهة
وكانت النساء يرسمن علامة الصليب فى ذهول
ثم لم يبق اخيرا شىء
لم يبق الا الليل •
وعندما عادت اليها الحياة ، كان ذلك عند جنازة
ومنعوها من أن تودع طفلها
وبكوه ووا روه •
ثم عادت الحياة الى مجراها حثيثا
وذهبت هى من جديد الى عملها
وكانت تعمل وتنام وتاكل

« لا تقلقي يا حبيبتي ساعود »
لكنه لم يف بالعهد الذى عقده
وكان الكل رمادا :
رمادا فى الفم
رمادا فى القلب
ونبع الزمان لا ينقطع
ثم يوما من الايام
من تحت الصعيد وتحت الرماد
بين الاطلال والانقاض
طلعت ، يا للمعجزة !
نبتة
وكانت نسمة خفيفة
تلاطف الجباه
وبحذاء قلبها
كان قلب رجل ينبض من جديد
ومن جديد ضمت بين ذراعيها القويتين
ضمت الى صدرها جسم رجل حبيب
وابتسمت من جديد متطلعة نحو المستقبل
كانوا فقراء لكن لم تنقصهم الشجاعة
لقد انكبوا على العمل مجهدين انفسهم
وغرسوا المعول فى باطن الارض
وطوحوا بعيدا ببقايا الانقاض والاطلال
واتوا بمنقلات مليئة بالجبر والاسمنت
وايضا بجذوع اشجار من غابات نائية
واقاموا السلالم
ودميت راحتهم
وثقلت اكتافهم وكانها كتل رصاص
لكن هذا لم يفت من عضدهم فمضوا على النواجذ

وشمـــروا علـــى السواعــــد
واستمـــروا فـــى البنـــاء
واسمعـــوا مـــن جديـــد ضجيـــج الالات
داخـــل المصنـــع المتهـــدم
وحفيـــف الحـــور فى منتـــزه المدينــــة
وحسيـــس النـــار فى الموقـــد المشيـــد مـــن جديـــد .
لقـــد اقامـــوا بسواعدهـــم محـــل الانقـــاض
مـــأوى الرجـــاء
ثـــم عـــاد الليـــل اخيـــرا
وشعـــرت فيـــه وهى ملقاة على فراشها الضيـــق
يتحـــرك الطفـــل فى احشائهـــا
وكانـــت هنـــاك فاقـــدة لكـــل حركـــة
وجسمهـــا بكاملـــه يتفصـــد عرقـــا
وكانـــت تشعـــر بموجـــة السعـــادة التـــى لا تقهـــر
تغشاهـــــا
امـــاه ! يـــا مـــاه !
يـــا امريكـــا البسطـــاء
رجائـــى هـــو أن لا تتجرعـــى عمـــرك
مـــرارة طعـــم السعـــادة هـــذه
ممزوجـــة بالرمـــاد والـــدم
رجائـــى هـــو ان لا تعيشـــى ابـــدا
قتامـــة قلـــق الانبعـــاث
لاولا العـــودة الـــى النـــور
كمـــا تيـــض لتقـــى
شعـــرت بشاهـــد القهـــر الثقيـــل ينهـــك جسمهـــا
لمـــاه ! يـــا مـــاه !
رجائى هو ان لا تمثل امام عينيك ، ابدا ، رؤى هذه المراة .

من قبو دارهم القديمة
دارهم التي لم تبق لها باقية اليوم
تتراءى لها طفلها في الظلام الحالك
يصعد السلم درجة درجة
طفلها الذي لم يبق له وجود اليوم
تتراءى لها صاعدا نحو فجوة النور
فجوة الباب المفتوح على مصرعيه
انه يصعد خطوة خطوة
كما يفعل كل طفل سنه سنتان
انه يضع رجلا ثم الاخرى فوق كل درجة
انه يرتدي قميصه المزين بالتعاريج
قميصه الذي لم يبق له وجود اليوم
وهي تنتظره بالباب
باعلى الدرج
تحت اشعة الضوء
انها تشير اليه بيدها
لتلفت انظاره نحوها
لكنه يبدو وكانه ينزلق فوق الدرج المبتل
مترنحا ، على ساقيه المكتنزتين ، بخطى غير موفقة
وينظر اليها نظرة المغتاظ
لا بعيني طفل سنه سنتان
بل بعيني زوجها الحالي
بعيني الطفل الذي تنتظر
بعيني الصبي الذي لم يولد بعد
انها تمد نحوه يدها
اما هو فيصعد باستمرار
لكن الدرج ينخسف اكثر فاكثر
وهو يتضاءل شيئا فشيئا

ويتلاشا باستمرار
في أسفل الدرج
وعيناه وحدهما لا تفتآن تحدقان فيها
ولم تستيقظ هي صائحة
ولم تصرخ
حتى فيما بعد

لقد نهضت بتؤدة ، بلا ضجيج
لكي لا توقظ زوجها المتعب
وانسلت خارجا نحو السطح

انظري اليها
وجنتاها الواسعتان تلمعان
وشعرها المعصوب جيدا
يلمع تحت ضوء القمر المنتشر
وشفتاها المكتنزتان ترتعدان
وهما منفتحتان قليلا
انظري اليها يا اماه !
وري كم هي قريبة منك
لو خطوت بعض الخطوات
ونزلت بعض الدرجات
وتخطيت باب الحديقة
ومددت يدك
المستهيبا
وشعرت بكتفها البض القوي
يرتعد تحت خمارها الصوف
ورأيت من قريب ، من قريب جدا
عينيها الميتتين
اللتين يدركان معنى الموت والانبعاث

يرنوان اليك
ويخاطبانك .
لا ليست اوربا الصليب المعقوف ، والمذابح
ليست هذه الكلبة
ذات العينين المحتقنتين
والفكين الحديديين
والنحر الملطخ بنثار من دم بنى
ليست هذه الكلبة التى تسوق ، بدون شفقة ، المتاجرين فى الموت
صانعى المدافع
جنرالات وول ستريت
لا ! ليست اوربا هذه
التى ستصارحك بالحقيقة
يا امريكا البسطاء
لكن اوربا الاخرى
التى لقيت الامرين
اوربا الحقيقية
ذات الوجه الانسانى المضىء
الذى يشبه وجهك
اوربا التى انضجتها الاحداث
والتى اكتوت بالنار والصراعات
اوربا التى اصبحت اكثر عزما
واكثر اهتماما وحكمة
والتى قررت ان تناضل من اجل الحياة
لانها دفعت فى سبيلها كل غال ونفيس
هذه هى التى يتهمها الشيوخ والجنرالات
باثارة نار الكروب
هى التى تشنع بها الجرائد والصحف
هى التى يسخر منها فى المقاهى وتحتقر فى المنتديات المترفة

هـى التـى يـريدون ان يتمنفـوا الـى الغالبية الكئيبـة ؛
ضـدهـا يريـدون ان يحرضـوا ابنـاءى
لكـى ينهـالـوا عليهـا بضرباتهـم .
يقـول المتاجـرون فى الموت :
« ان اوربـا بعيـدة
دع الزوبعـة تصـر
فـوق رأسهـا
دع الصاعقـة تسحقهـا
دع منازلهـا تقـوض
فى الفوهـة التـى فتحتهـا القنبلـة الذريـة
امـا انـت يـا امريكـا
نحـى عنـك مخـاوفـك
آوى الـى بيتـك
واسدلـى ستـارك
واوقـدى مصابيحـك فـوق اسكملتـك
وانزعـى اصابعك مـن كبـة الصوف
واستمـرى فى سـردك لابضـه
الصدريـة التـى سبـق لـك ان شرعـت فى نسجهـا .
امـاه ! يـا مـاه !
يـا امريكـا البسطـاء
انـا لا اقـول لـك موكـدة
شيئـا آخـر يعـدو الحقيقـة المتجليـة فى عصرنـا .
ان العالـم صغـير
والفضـاء ليـس الا وهمـا
وبعـدهـا تـافهـا
وهمـا وخرافـة
ان المحيـط الـذى يفصـل بيننـا ضيـق جـدا
مثـل هذا الزقاق المرصف ببلاطات بيضـاء تحت ضوء القمـر

والذى يمر بين هذه الدور المتصافة .
يلزم ان لا تعصف العاصفة
يلزم ان لا تسقط الصاعقة .
نفس الشرارة ، الشرارة نفسها
التى ستلهب وتفوض جلزات سقفى
وتسودها بيحمومها
نفسها ، ستمتد الى درجك ونوافذك فتلعقها
وستنفذ الى ستائرك المسدلة
فتلتهمها هى ايضا ، وتصيرها رمادا
اسرع مما تفعل بجناحى فراشة
ان نفس العاصفة المرعبة
التى ستزعزع جدار بيتى
ستمر فوق راسك
وتسقط مصباحك فوق منضدتك
ولا تترك الا رماد المدرية المنسوج نصفها .
نعم ان الطريق الذى يفصل بيننا ضيق جدا
لا احد يقدر على تقويض وحدة مصيرنا .

فى السيل الذى يزمجر بين دارينا
سينصب دم قلبك
ويمزج بدمى .
يا اختى ! يا صديقتى !
لم يفت الاوان
لم يفت الاوان بعد
تحررى من ملزمة الكذب
فكى الوثاق الذى يربطك بجسمه القذر ، جسم الزحافات
ثم دوسيه بقدميك
واسحقيه

حتى لا تختم الموت بقبلاتها شفاه اطفالك
حتى يميل غصن ليلك الشفاف الطاهر
نحوك مرة اخرى والى الابد
فى ليلة مساى الدافئة

ماريا بسانوس .

ترجمة : ادريس السفروشنى

عبد السلام بنعبد العالي

حول المنهج البنيوي

يبدو لاول وهلة ان الطريق الى فهم البنيوية Structualisme هو تحليل لفظ البنية . غير ان الامر ليس بهذه السهولة خصوصا وان لفظ البنية قد استعمل مدة طويلة قبل استعمال لفظ البنيوية فاتخذت كلمة بنية معانى شتى قبل ان تعطيها البنيوية معناهـــا الاصطلاحى . فما الذى نرمى اليه اذن من لفظ البنية ؟

لقد جاء لفظ البنية فى الاصل من الميدان المعمارى ، حيث كانت تعنى الكيفية التى شيد عليها بناء ما . وهكذا فان اللفظ الفرنسى Structure يحيل الى اللفظ اللاتينى Struere الذى يعنى البناء والتشييد .

وانطلاقا من هذا المفهوم اصبحت الكلمة تعنى الكيفية التى تنتظم بها عناصر مجموعة ما اى انها تعنى مجموعة من العناصر المتماسكة فيما بينها بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر الاخرى وبحيث يتحدد هذا العنصر بعلاقته بتلك العناصر .

فالبنية هى مجموع العلاقات الداخلية الثابتة التى تميز مجموعة ما بحيث تكون هناك اسبقية منطقية للكل على الاجزاء : اى ان اى عنصر من البنية لا يتخذ معناه الا بالوضع الذى يحتله داخل المجموعة . وان الكل يبقى ثابتا بالرغم مما يلحق عناصره من تغيرات .

وبهذا المعنى تعنى البنية صورة الشيء او هيكله او التصميم الذى يربط اجزاءه . وربما كانت كلمة هيكل اكثر صلاحية للتعبير عن هذا المعنى الاختبارى Empirique لكلمة البنية . اذ المقصود من هذا المعنى ما يعطيه ايانا الواقع مباشرة من صيغ ، بحيث تكون البنية هى مجموع العلاقات التى تبدو لنا .

ولن تبقى اهمية كبرى لهذا المعنى اذا ما نحن انتقلنا الى مجموعات لا تؤول فيها البنية الى مجرد العلاقات المادية التى تربط عناصر المجموعة ، بحيث لا تعطينا مجرد الملاحظة التلقائية الهيكل الذى صممت حسبه المجموعة . تلك هى المشكلة التى تطرحها المجموعات اللغوية والاجتماعية والثقافية . فاذا ما نحن اخذنا بعين الاعتبار مثلا ، توزيع الادوار فى مجموعة بشرية حسب السن والجنس نجد ان هذا التوزيع وليد قواعد معينة وليس هو مجرد نتيجة لتحديدات طبيعية . فما يجعل هذا الشخص بعينه يلعب دور الاب داخل العلاقات الاسروية ليس راجعا الى خصائص بيولوجية طبيعية ، وحينئذ لا تصبح البنية هنا مجرد العلاقات المادية الظاهرة .

وهكذا لايكون علينا امام مجموعات لغوية او ثقافية او اجتماعية ان نقسم الكل كما يبدو لنا لنتعرف على العناصر التى يتركب منها ، بل ان ننطلق من كليات مفترضة كى نربط بين العناصر ونعاملها كما لو كانت اجزاء كل بعينه :

فالبنية عند البنيوية هي « نسق من التحولات يخضع لقوانين من حيث هو نسق ، وذلك في مقابل الخصائص التي تتمتع بها العناصر » بمعنى ان البنية هي القانون الذى تتشكل حسبه معقولية مجموعات مختلفة . اى ان ما يهم فى البنيات هو وحدة تغيراتها المتمايزة ، تلك الوحدة التى تشكل قانون ذلك التغير .

وهكذا تقابل البنيوية فى معناها العام النزعة الذرية Atomisme فبينما تسعى الذرية الى عزل العناصر التى تتكون المجموعة من تراكمها ، تسعى البنيوية الى اظهار العلاقات التى تعطى للعناصر قيمتها كعناصر والى ادراك المجموعات التى تعطى للحدود دلالتها .

فالبنيوية تقتضى اذن :

* الكلية : اى ان البنية تتركب من عناصر خاضعة لقوانين تميز المجموعة . كما تقتضى .

* الاستقلال فى ترابط : بمعنى ان التغيرات التى تحدث داخل المجموعة تكون تابعة البنية ولقوانينها الداخلية دون توقف على عوامل خارجية . وهذا يعنى ان البنيوية لا تعتبر ان المجموعات ناتجة عن مجرد تراكم يخضع للصدفة او انها ناتجة عن التقاء عارض لعوامل خارجية مستقلة فيما بينها . بمعنى ان البنية تتمتع بتنظيم ذاتي يحفظ وحدتها ويجعلها مغلقة بالنسبة لغيرها .

فلو نحن اقتصرنا على المعنى المتداول الذى يقف عند اعتبار البنية مجرد تنظيم لعناصر مجموعة ما لبقينا فى مستوى الواقع دون ان نبلغ مستوى ما هو معقول . واننا لا نبلغ هذا المستوى الاخير الا اذا تجاوزنا حالة فرد بعينه لنبلغ الشكل . وبعبارة اخرى ، اذا لم نقف عند مجرد وصف مجموعة ما دون

بمقارنتها بمجموعات اخرى لندرك ان تلك المجموعة تتخذ معناها فى علاقاتهـا مـع المجموعـات الاخـرى .

نستطيع اذن ان نتبين فى كل مجموعة منظمة ارتباطا ما بين بعض العناصر، ذلك الارتباط الذى يحدد المجموعة فى فرديتها وتفردها وفى علاقاتها بالمجموعات الاخرى .

وعلى هذا فان البنيوية تبدأ عندما نؤكد بان مجموعـات مختلفة يمكن ان تتقارب فيما بينها لا بالرغم من اختلافاتها بـل بفضـل تلـك الاختلافـات .

يقوم المنهج البنيوى اذن فى التعرف علـى اختلافات بين مجموعات منظمة ، اختلافات لا تعنى تباينـا مطلقا بـل تدل على العلاقة المشتركة التى تتحدد حسبها . ثم بعد هذا التعرف يقتضى المنهج ترتيب تلك الاختلافات بحيث يبـدو مجموع المجموعات ناتجا عن عملية تبديل وتركيب لتلـك المجموعات فيما بينها .

يقـول (ليفـى — ستروس) :

((اننا نعتقد انه لكى يصح اطلاق لفظ بنية على نماذج مـا ان عليهـا ان تحقق الشروط الاتيـة :

اولا :يجب ان تتمتع البنية بخاصة المنظومة ، اى ان تتكون من عناصر يؤدى اى تغيير فى احدها الى تغيير باقى العناصر الاخـرى .

ثانيـا : يتعلق كل نموذج بمجموعة من التغيرات بحيث يوافق كل منها نموذجا من نفس المجموعة وبحيث يشكل مجموع هاته التغيرات مجموعة من النماذج .

ثالثـا : تسمح لنا الخصائص المذكورة اعلاه بان نتنبـا بالكيفية التى سيرد بها النموذج اذا ما غيرنا احد عناصره ، واخيرا

فان للنموذج يجب ان يشكل بحيث يدل استخدامه على جميع الوقـائـع المـلاحظـة » . (1)

وهكذا يقتضى المنهج البنيوى تعدد التنظيمات . فلا معنى للحديث من بنية تخص كل مجموعة على حدة او من بنية نموذجية تكون صورة لكـل المجموعات . وهذا ما قصدنا اليـه عندما قلنا بان البنية هى قانون تغيراتها .

فهل يؤول المنهج البنيوى اذن الى مجرد الصياغة الصورية Formalisme يجيبنا (ليفـى ــ ستروس) عن هذا السؤال بقوله بان المنهج البنيوى على العكس من ذلك يرفض التمييز بين الصورة والمحتوى « فالصورة تتحدد بعلاقتها بمحتوى خارج عنها . ولكن البنية لا محتوى لها : انها هى المحتوى عندما ندركه داخل تنظيم منطقى من حيث هو خاصية مـن خصائص الواقـــع » .

فالبنية جزء من الواقع ، ولكنه ليس الواقع الاختبارى Empirique الذى تعطينا اياه مجرد الملاحظة السطحية ، فالبنية الاجتماعية الظاهرة بل انها مستوى من مستويات الواقع ولكنه مستوى غير ظاهر يجب الكشفه منه فيما وراء المعطى المباشر . فنحن لا ندرك البنية فى مستوى العلاقات المباشرة بين الظواهر بل ننشؤها انشاء . يقول (ليفـى ــ ستروس) : « وهكذا يتجلى لنا الاختلاف بين مفهومين جد متقاربين لدرجـة انه غالبا ما وقع الخلط بينهما : اعنى مفهوم البنية الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية . فالعلاقات الاجتماعية هى المادة الاولى التى تستخدمها لتكوين نماذج Modèles تفصح عن البنيـة

---

(1) الانتربولوجية البنوية (1) : ص 306 .

الاجتماعية ذاتها . ولا يمكن اطلاقا ان تؤول البنية الى مجموع العلاقات الاجتماعية التى نلاحظها فى مجتمع ما » ..(2)

يذكرنا هنا بمفهوم العلم عند (باشلار) وتلامذته الذين يؤكدون بان العلم ليس مجرد (قراءة) بسيطة لمعطيات الواقع المادية المتجلية . صحيح ان المستوى السطحى من الواقع يكون المادة الاولية التى تستعمل لصياغة نماذج تكشف عن البنية المجتمعية ذاتها . فالنموذج هو تبسيط للواقع نسعى به الى احداث تغيرات فى الواقع ، تغيرات من شانها ان تسمح لنا بتبين البنية وان الخط البيانى الذى نمثل به النموذج يحيل الى التحليل والمنهج وليس هو نسخة للواقع . يقول (ليفي ــ ستروس) : « ان المبدأ الاساسى هو ان مفهوم البنية الاجتماعية لا يرجع الى الواقع الاختبارى بل الى النماذج التى نبنيها انطلاقا من هذا الواقع » ثم يقول : « ما كان للبحوث البنيوية قيمة لو لم تكن البنيات قابلة لان يعبر عنها عن طريق نماذج يمكن المقارنة بين خصائصها الصورية وذلك بغض النظر عن العناصر المكونة لها ، ان مهمة البنيوى هو ان يدرك الوحدة بين مستويات الواقع التى تتمتع بقيمة اساسية فى الاعتبار الذى يعتبره هو ، وبعبارة اخرى بين المستويات التى يمكن تمثيلها عن طريق نماذج مهما كان طابع هاته النماذج » . (3)

بهذا المعنى فان البنية لا شعورية ، ولكن اللا شعور الذى يقول بــه هؤلاء ليس هــو الذى يقول بــه فرويد . فهو ليس اللا شعور الذى تضبطه رقابات الهو . انه كما يقول (ريكور) : « لا شعــور كنطــى » لا شعــور مــن مستــوى المقــولات وتآلفها (...) اذ اننا حقــا بصدد منظومة من مستوى المقولات بدون احالة الى ذات مفكــرة » .

(2) الانتربولوجية البنوية (1) ص 305

(3) الانتربولوجية البنيوية (1) ص 311

فهو اذن لا شعور بنيوى غير شخصي وغير زمنى ، وانما يعبر عن نفسه من خلال الانسان . ذلك ان الخاصية الاساسية للعالم البشرى* هو انه عالم غنى بالدلالات . وان كون الظواهر الشعورية متقلة باللا شعور لا يترك لوعى الافراد ولمبادراتهم الشخصية كبير قيمة . وهنا يكون الوعى هو العدو الخفى للعلوم الانسانية . فنحن نضبط وراء دلالات العالم البشرى قوانين لا شعورية . يقول (موريس غودوليه) : ((ان الفهم العلمي للواقع الاجتماعى لا يمكن ان يرتكز على انطباعات الافراد عنه ، حتى ولو كانت هاته ثمرة التامل الجدى . والواقع ان مهمة الوصف العلمى تكمن فى البرهنة على ان هذه الانطباعات مجرد اوهام كما تكمن فى اظهار المنطق الداخلى الخفى لحياة المجتمع ، بذلك يكون النموذج الذى يبنيه العلم (...) مطابقا لواقع مختبىء خلف الواقع الظاهـــر)) . وليس هذا الاختفاء ((عائدا الى عجز عن ادراك هذه البنية ، بـــل الى البنية ذاتها .)) (4) كما يقـــول (ليفـــى ستروس) : ((ان هدف الانثلوجيا هو ان نتمكن من وضع قائمة بالامكانيات اللا شعورية فيما وراء الصورة الواعية والمتغيرة التى يشكلها البشر عن تطورهم)) (5) . ينتج عن هذا ان الفهم العلمى لبنية ما لا يلغى الوعى العفوى لهذه البنية . انه يعدل دوره وآثاره ولكنه لا يلغيه بل يعتبره من مركبات البنية ذاتهـــــــــا .

قلنا انه عندما يتعلق الامر بحالات متتابعة لنفس المجموعة تكون البنية هى قاعدة التغير التاريخـــى الفعلى لتلك المجموعة . اى انهـــا تكون تفسيرا لصيرورة . وهذا يعنى ان البنيويـــة لا تتنافر والاعتبار التاريخى ما دامت تفسر التغير والصيرورة . ذلك

---

(4) موريس غودوليه فى (الازمنة الحديثة) عدد 246 ــ لسنة 1966 .
(5) ليفى ــ ستروس : الانثربولوجية البنيوية (1) ص 31 .

ما اكده (ليفي ــ ستروس) صراحة في حديث له سنة 67 ، يقـــــول :

« تنتقي (البنيوية) الوقائع المجتمعية من التجربة لتدخلها الى المخبر ، وهناك ، تحاول ان تمثلها في شكل نماذج آخذة في اعتبارها لا الحدود وانما العلاقات بين تلك الحدود ؛ وحينئذ تعامل كل منظومة من العلاقات كما لو كانت حالة خاصة لمنظومـات اخرى كائنة او ممكنة فتسعى الى اعطائها تفسيرا كليا علــى مستوى قواعد تغيراتها ، تلك القواعد التي تسمح بالانتقال مــن مجموعـة الــى اخـــرى » (6)

والواقع ان علاقة البنيويين بالتاريخ قد تغيرت حتى ان سنوات الستينات كانت قد عرفت جدالا حادا بينهم وبين من يلح على الاعتبار التاريخي وعلى اهمية التاريخ .

وان نحن رجعنا الى اصول البنيوية نجد مثلا ان (دوسوسور) يعطي اسبقية كبرى لما هو تزامني سكوني Synchronique على حساب الاعتبارات التاريخية التطورية Diachronique وربما كان موقفه هو مبررا باعتبار ان ما قام به كان رد فعل ضد الدراسات التاريخية المقارنة للغات .

اما ليفي ــ ستروس فان علاقته بالتاريخ قد تطورت تطورا كبيرا . فهو قد كتب حوالي 1962 : « ان الانتلوجي يحتــرم التاريخ . ولكنه لا يعطيه قيمة كبرى . فتعتبره دراسة مكملة لما يقـوم بـه هـــو » .

والواقع ان وضعه للتاريخ بين قوسين واهماله له كان امتدادا للاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع . تلك الاتجاه الذى احس بان التفسيرات التاريخية غالبا ما تكون على حساب الموضوع المدروس ذاته . ففهم الظاهرة يعني في الاعتبار التاريخي اكتشاف

(3) - Le Nouvel Observateur N° 115 - 25 - 31, Janvier 67.

تكونها وتفسير اللاحق بالسابق وهنا يخالف الدراسة التى تبغى الوقوف على الترتيبات والتنظيمات الداخلية التى تحدد ظاهرة من الظـــواهــــــــر .

لذا قام البنيويون فى أوائل دراساتهم ليعيدوا للموقف التزامني Synchronique قيمته ، وليقوموا بالدراسات آلتسانية لحل محل التاريخ وتعيد للمجتمعات التى لا تواريخ لها قيمتها ولتهتم بإنسان تلـــك المجتمعـــــــات .

غير ان هؤلاء سرعان ما تبينوا بأن تحليل منطق بنية مـــا يسمح بإبراز قدراتها وإمكانيات تطورها . كما تبينوا ان بإمكان البحث حول أصول البنية ونشأتها آن يستعين بمعرفة آليتها الخاصة . واتضح ان لا تنافر بين دراسة آلنمو الداخلى لبنية ونشأتها وتطورها ، كما اتضح لهم ان تحليل النشأة التاريخية لبنية ما ، يعني تحليل شروط ظهور عناصرها الداخلية وحدوث الارتباط بين تلـــك العناصـــر . يقول (ليفـــى ــ ستروس) : « هناك بالفعل علاقة متينة بين مفهوم التغير ومفهوم البنية وهذا يحتل مكانة هامة فى اعمالنا » . ثم يقول : « ليس هناك علم يستطيع اليوم ان يعتبر البنيات آلتى تتعلق بميدانه كما لو كانت مجرد آنتظام معين بين آجزاء معينة . فلا يتخذ (طابع) البنية الا الانتظام الذى يستجيب لشرطين : ان يكون نسقا متماسكا داخليا بحيث لا يبدو هنا التماسك لمجرد ملاحظة نسق منعزل بل ينكشف عند دراسة التغيرات التي تبين بفضلها خصائص متشابهة فى أنساق تبدو مختلفة ظاهريا » . ويقول أيضا : « وهكذا فان الانثروبولوجيا لا يمكن ان تسقط من إعتبارها التطورات التاريخية والتعبيرات الواعية (من الظواهر الاجتماعية) . ولكنها إذا كانت تعطى لتلك التطورات والتعبيرات نفس الاهمية التى يعطيها اياها المؤرخ . فهى تفعل ذلك لكى تتوصل ، عن طريق نوع من التراجع الى آن تزيل عن تلك التطورات والتعبيرات كل ما تأخذه عـــن

الحدث التاريخي والتأمل الفكرى » (7) . فربما كان « مما يبعث على الضجر ومن السخف الكبير ان نأتي بالادلة تلو الاخرى لنثبت ان كل مجتمع غارق فى التاريخ وانه فى تحول دائم . فتلك هى البداهة عينها » (8) . فليس المهم اذن ان نحاول اثبات تحول البنيات وتاريخيتها ، ليس المهم ان نثبت قيمة التاريخ وانمـــا المهم ان نحاول تحديد معناه ودلالته الخاصة عند من يتبنى المنهج البنيـــــــــــــوى .

فالمعنى الذى يروجه المفهوم المتداول عن الزمان التاريخى هو الوحدة والتجانس . فلو نحن اخذنا مرحلة من مراكل تطور تشكيلة مجتمعية معينة ، حسب هذا المفهوم ، وجدنا ان جميع مركباتها تخضع لنفس الايقاع وتسير مواكبة بعضها لبعض ، غير ان الفحص يكشف لنا عن عدم تجانس ، يكاد يكون حادا فى بعض الاحيان ، بين مختلف المستويات المجتمعية . فالزمان الذى يستغرقه تحول البنيات الاقتصادية مثلا ، ليس هـــو بالضرورة نفس الزمان الذى يشغله تحول البنيات الثقافية . وهناك فترات تاريخية يسير فيها الزمان الايديلوجى بسرعة تفوق بكثير سرعة (الزمان الاقتصادى) وهى تلك الفترات التى تعرف منعرجات كبرى فى تاريخ الايديلوجيات . كما ان هناك فترات يكون فيهـــا المستوى السياسى السبق فى المجلة وهكذا .

ثـــم ان المجتمعات تتميز اشد التمايـــز فى استجابتهـــا للايقاع التاريخى . فهناك مجتمعات ذات ايقاع بطيء واخـــرى (ساخنة) يبدو ان عجلة التاريخ فيها تسير بسرعة اقوى فالاولى « تسعى بمهارة نتجاهلها نحن ، فى ان تحافظ ما امكنتها المحافظة على احوال تعتبرها اساسية فى نموهـــا » (9) .

7) الانتربولوجية البنوية ، ص 30
8) كلود ليفى ــ ستروس : الفكر المتوحش ص 309 بلون
9) كلود ليفى ــ ستروس : الفكر المتوحش ص 310

ثم ان التقدم التاريخى لا يتبع خطا مستقيما وحيد الاتجاه . صحيح ان السير التاريخى سير تقدمى وليس لوليبيا . ولكن التاريخ ملىء بالتعثرات والقفزات والفواصل . بل انه كثيرا ما يرجع القهقرى . يقول (مشيل فوكو) ((لقد كان الانفصال علامة على التشتت الزمانى الذى كان على المؤرخ ان يحذفه ويقضى عليه . ولكنه اصبح اليوم من العناصر الاساسية فى التحليل التاريخى (...) . ذلك ان ما يبغى المؤرخ الكشف عنه هو حدود سيرورة ما ، وانعطاف خط معين ، ونقطة تحول فى حركة من الحركات)) (10) .

وهكذا فان كانت البنيات ، فى رأى أصحاب المنهج البنيوى ، فى تحول مستمر ، فان ذلك التحول ليس متجانسا كما ان سرعته واتجاهه خاضعان لتغيرات مستمرة ، وهذا يعنى ان الزمان التاريخى الذى يثبته البنيويون ليس بالزمان المتجانس ولا هو بالزمان المتصل ، انه زمان يطبعه التنوع والتقطع .

* * *

تلك هى المعالم الاساسية لما اطلقنا عليه ، بشىء من التجاوز ، منهجا بنيويا . ونحن ان كنا نجد تلك المعالم بشكل صريح عند شيخ البنيوية الفرنسية (ك. ليفى ـ ستروس) ، فربما كان من حقنا ان نفترضها فى اساس اعمال أسماء برزت فى اقطار مختلفة ، بل فى دراسات وميادين متنوعة ، حتى وان كان اصحاب تلك الاسماء يرفضون ان يطلق عليهم بنيويين كألتوسير وفوكو . صحيح ان هناك اختلافات جوهرية بين هؤلاء ، وربما كانت نقاط الالتقاء بينهم ضعيفة فى بعض الاحيان ، الا اننا نستطيع كما سبق ان اشرنا ، أن نجد فى اساس اعمالهم وحدة فى المسالك تطبعها المعالم الاساسية التى حاولنا ان نبرزها بشىء من

(10) M. Foucault. In Cahiers pour l'Analyse N° 9, p. 10.

التركيز ، والتى نستطيع ارجاعها مع (ل. سيف) الى نقط ثلاث تشكل روح المنهج البنيوى :

((1 — ابستملوجية تعتمد النماذج . وترفض وجهة النظر الاختبارية التى تدعى ان بامكان البنية ان تكشف عن نفسها فى مستوى العلاقات المباشرة بين الظواهر ، لتؤكد ، على العكس من ذلك ان البنية من انشاء العقل العلمى الذى يتجاوز المظاهر الخداعة بل ويصارعها فى بعض الاحيان .

2 — انطلوجية عن البنية كبنية تحتية لا شعورية تفترض خلف العلاقات المدركة . ونتيجة لذلك الحط من قيمة الوعى المباشر للافراد وما يعانونه . وفى هذا المضمار ، اعتبار البشر ضحايا اوهام .

3 — رفض الوعى التاريخى الذى يلخذ التاريخ البشري على انه تقدم متصل متجانس » (11) ٪

سلا — عبد السلام بنعبد العالى

(11 ل . سيف : المنهج البنيوى والمنهج الجدلى ،
in La Pensée octobre 1967.

محمد محمد الاشعرى

مقاطع على جدران الدروب الحزينة

بحثت فى اعماقى عن آخر الاحزان
حملتها للناس الطيبون
تجمهروا حولــى
لحاهم المتسخــــة
اقدامهم بكل ما تحمله من صور الرحيل
عيونهم بكل ما تحمله من قصص الخريف
كل شىء فيهـــم
ذكرنى بما وجدت فى داخلــى
سألتهم عن آخر الاخبــار
قال الذى يمضغ قشرة الموز التى التقطها من الرصيف
مستحيل أن نعيش فى هذه المدينة
الحــر فيها لا يطــاق
وكل درب جئته مخيف

من لى الذى يلف اعقاب السجائر
متى يجىء موسم التناسل ؟
ضاجعت فى الدرب الحزين عاهرة
قسرا فلم تلـد
غصبت فى مخر الطريق قاصرة
فلم تلـــد
هــل أنا عقيسم ؟ !
قال لى الذى يفوح منه نتن خمر ضاريه
حدق فى وجهى الذى اكله الضياع
اليست فيه ألف قصة مبتورة
حدقت ما قرأت غير فصل من رواية الجياع

* * *

عمـــود الكهـــربـــاء ...
وحـــارس الليل الذى ينـــام مـــاشيـــا
ونائم فوق الرصيف
غير عابىء بآخر الاخبـــار
ومقطع من اغنية يقول : « يا ليل .. يا عين »
يسمع من بعيد .. من بعيد
مواء قطة ضلت طريقهـــا لمنفـــذ « الخزيـــن »
هذا هو الدرب الذى أسكنه ..
فهل أنا اكتب ؟ !
هاجرت باحثا عن الاضواء
لكن داخلى مظلـم
وكل الواجهات ذكرتنى بالمآتم
وقلت لا بأس

ما دام الشارع الكبير لا يخلو من عاهرة
وماسح الاحذية الصغير
وقال لى صديق مولع بصحف « الكنانة »
الصيف هذا العام لن يمر دون حادث كبيـــر
هاجرت باحثا عن الاضواء
لكننى وجدت الدم
وجدت طفلة مشردة
سألتها عن آخر الاخبار
لم تجب وكانت عارية
واستطعت ان ارى بكارة مفضوضة فى صمتها
رايت فوق جسمهــا آخـــر الافرازات
أصابنى نشيج مـــريـــع
غضبت غضبة الحمامة المكسوره الجناح
وعدبت للدرب الفظيـــع

* * *

جمعت آخر الاحزان وجدتها معدة لبذرة العصيان
حملتها للناس الطيبين
فلم اجدهم فى الطريق
بحثت عنهم فى الدروب الصامتة
بحثت عنهم فى مقابر المدينة
لـــــم أجـــدهـــم
شىء جديد ان يكون الناس خارج المناطق الموبوءه
شىء كبير ان يكون هذا ..!

الرباط : محمد محمد الاشعرى

احمـــد الضمضومـي

مؤتمـر الجزيـرة والخطـوط الكبرى على طريق الحمايـة

اذا كان المغرب قد تميز في القرنين السادس عشر والسابع عشر بسيطرته البحرية المطلقة وانقاد له ما تصعب وامكن مـا امتنع في البحر الابيض المتوسط ، وسارعت الدول الاوروبية لفداء اسراها الذين كانوا يتساقطون في ايدي البحارة المغاربة ، وفرض المخزن على بعض الدول ضرائب سنوية وانما تخلفت عن ادائها جهز بعض القطع البحرية املاءا عن غضبه وتبيانا لقوته (1) والزم القناصلة باداء ثمن البارود الذي يستعمل لتحيتهم عنـد حلولهم بالمغرب ، ومنع هؤلاء موظفي المفوضيات ركوب الخيل الا باذن خاص من عادل البيينة ، فان ذلك العهد مضى وسلف ،

1) كانت السويد والدنمارك والبندقية وبعض مدن الشمال الغربي من المانيا تؤدي هذه الضريبة ، ولم تعف منها الا بعد معركة وادي اسلي . واعتبرت ترشيحة هذه الضريبة مذلة واهانة للمسيحيين .

وانطوى المخزن على نفسه ، وانعزل المغرب عن العالم الخارجي وبلغ الانكماش درجة التقوقع ايام السلطان المولى سليمان الذى الذى فضل اغلاق ابواب الموانىء والاستغناء عن مواردها ليبعد كل شر محتمل قــد ياتى منهــا .

الا ان هذه الانطوائية لم تستمر مع احتلال فرنسا للجزائر وتوطيد دعائمها فى هذا القطر الشقيق المجاور ومع الجولة الثانية من الزحف الاستعمارى التى امتدت طوال اواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين . ففرضت على المغرب علاقات لم يعــد يتصرف فيها بكامل سيادته وحريته وحسب مقتضيات مصلحته وظروفــــــــــه .

الصــــراع المغربـــى الفرنســـى :

وتهافتت الدول الاوروبية على المغرب ، وحاولت كل واحدة ان تنال منه قسطها ، او على الاقل ، ان تضمن حرية تجارتها . وسعت الديبلوماسية الفرنسية ما وسعها السعى الى ابعاد كل منافس ليبقى لها المجال فارغا وتستعمل نفوذها للضغط علــى سلطــان المغــرب واخضاعــه لمشيئتهــا .

وبعد اتفاقيات ابرمت مع كل دولة منافسة على حدة تعهدت فيها فرنسا لكل من ايطاليا وانجلترا واسبانيا بالتنازل عن « حقها » فى كل من طرابلس الغرب ومصر ومنطقة المغرب الشمالية ، وغلبت على وزارة الخارجية الفرنسية النشوة ، وامتلأها التفاؤل والتفاؤل ، وظنت ان الامر اصبح على حبل ذراعها .

« اننا حصلنا على نتائج باهرة ولم تمض بعــد سنــة على معاهدتنا مع انجلترا . لقد اعطى السلطان موافقته الضمنية على

تصريح لِيدن سيء وطلب منا في السنة الماضية مساعدته على اعادة الامن الى طنجة . وان مقمتبره افضل من ذلك ، اقلمتنا لمراقبين في كل مركز من مراكز الجمرك دون اثارة حفيظة السكان (2) » .

اعتقد دلكاسي ان فرنسا بلغت في المغرب منزلة ليس وراءها منزع ومطمع ، وان المجال المغربي قد خلالها ولم يعد فيه من ينصب لها المصايد ويحيك المكايد . وانتهزت فرصة المفاوضات بينها وبين الوفد المغربي حول مشروع الاصلاحات في ميدان الجيش والشرطة لتملي شروطها المجحفة على الوفد المغربي . واشتد الصراع بين البلدين وبلغ اوجه عند مطالبة المغرب بضرورة اشراف لجنة دولية على تطبيق الاصلاحات المزمع ادخالها تضمن مغادرة المدربين العسكريين الفرنسيين عند استغناء المخزن عنهم . ولما توصل وزير خارجية فرنسا بالمقترح المغربي ، ثارت ثائرته وابرق الى المفوض الفرنسي يقول له : « اعلن بكل حزم ووضوح الى ابن سليمان (3) انه لم يعد يوجد مبرر لقوات وسيطة بين الحكومتين الفرنسية والمغربية ، وان فرنسا وحدها تمثل الدولة المجاورة للمغرب ، وان المخزن يدرك التبعات المترتبة عن هذا الجوار والتي لم يتف بها » .

وتشبث الوفد المغربي بموقفه وافهم الفرنسيين ان المغرب عازم على النهوض بالاصلاحات بوسائله الخاصة . وفي حالة موافقته على ابرام معاهدة في الموضوع ، فسيكون عمله هذا من باب المحافظة على علاقات الصداقة بين البلدين لا غير ، وزاد مؤكدا على ان تطبيق مثل هذه المعاهدة يحتم ضمانات قوية لا يستطيع احد تقديمها سوى مجموعة من الدول العظمى .

---

(2) رسالة من دلكاسي وزير الخارجية الفرنسية الى طايانديي المفوض الفرنسي في طنجة .

(3) ابن سليمان : وزير خارجية المغرب رئيس الوفد المغربي في هذه المفاوضات .

وهاجت هائجة الحكومة الفرنسية وملئت غيظا من الموقف المغربي ، فاجابت في نمج وعنجهية : « ان المخزن يدرك التبعات المترتبة عن الجوار التي لم ينهض بها ، ويعلم الاضرار التي الحقها ولا يزال يلحقها بنا ، ولا داعي لانكارها ، وهي صادرة اما عن عجز واما عن سوء نية . ومن الآن فصاعدا سننتبه لاقواله ونسجل افعاله . ومن تصرفاته سنحدد في نهاية الامر موقفنا لانه يعلم مسبقا العواقب التي قد يتعرض اليها اذا ما ارتكب فعلة تمس بشكل من الاشكال حقوق فرنسا المنصوص عليها في المعاهدات والاتفاقات والالتزامات (4) . »

وبلغ الصراع المغربي الفرنسي اشده لما استقبل السلطان عبد العزيز للوزير الالماني المفوض (11 مايو 1905) واكد له ان المغرب لم يعد المقترحات الفرنسية وان كل ما يشاع في الاوساط الفرنسية في هذا الموضوع لا يعدو ان يكون مجرد ادعاء ، وانه لن يخضع لاية تبعية كما خضعت لها مصر وتونس وطرابلس ، وان قبول الاقتراحات والتنازل امام التهديد الفرنسي يعني وجود المغرب او عدم وجوده .

وعلى اثر هذه المقابلة والتصريح الذي تلاها ، قررت الحكومة الفرنسية سحب مدربيها من الجيش المغربي وتوقيف كل مساعدة عن المغرب .

التدخل الالماني :

لم يعد الموقف الالماني موقفا سلبيا يلاحظ من بعيد ما يجري داخل المغرب وما تقوم به فرنسا من استغلال واحتكار دون التدخل في الاحداث ومحاولة توجيهها لخدمة المصالح الالمانية . لقد احست الحكومة الالمانية بقرب سقوط المغرب بين احضان الاستعمار

(4) Mohammed Omar Hajoui : Histoire diplomatique.

الفرنسي وشعرت ان سلبيتها ستضيع عليها فرصة سانحة وتؤدى بها لا محالة الى اخلاء المجال لدولة منافسة قد تخلق لها مصاعب جمة اذا ما تقوت ووسعت نفوذها الاستعماري . ((أن سياسة الاستحواذ التي نهجتها فرنسا في الجزائر وتونس ، وموقف فرنسا في عدة قضايا ، والتصريحات المختلفة الصادرة عن الاوساط الاستعمارية والصحفية في باريس تثبت ان فرنسا تحاول ابعاد تجارة الدول الاخرى وصناعتها ليبقى لها وحدها الميدان مفتوحا . ان اقامة احتكار (منوبول) فرنسي يهدد المؤسسات الالمانية الكبرى التي تتعامل مع المغرب في وجودها ... ويقضي على الامال المشروعة المعقودة على المصالح الالمانية (5))) .

فما هي اذن مصالح المانيا او مطامعها في المغرب ؟

كانت الحكومة الالمانية تسعى جاهدة للحصول على اذن بوضع حبل تلغراف في المحيط الاطلسي على طول الشواطىء المغربية لتربط بينها وبين مستعمراتها الافريقية وتتحرر من استغلال الحبل البريطاني . وتطلعت الى فرض مشاركتها في اصلاح الموانىء المغربية حتى يتسنى لها بذلك توجيه ضربة الى المعاهدة الفرنسية البريطانية (6) والاتفاق المغربي الفرنسي الذى بمقتضاه حصل المغرب على قرض 1904 ، واكدت على ان المانيا ((لا تعترف لاى بلد بان تكون حقول الاصلاحات وقفا عليه)) . ولما قصر المخزن نقل البضائع والحبوب بين الموانىء البلاد على البواخر المغربية ، طالبت المفوضية الالمانية والحت في الطلب على استفادة بواخرها

5) تصريح لاحد المستشارين في وزارة الخارجية الالمانية وهو تعبير عن وجهة نظر الاوساط الاقتصادية .

6) نصت المعاهدة الفرنسية البريطانية (8 ابريل 1904) على أن حكومة الجمهورية الفرنسية « لن تعرقل مساعي بريطانيا العظمى في مصر » ، وأن بريطانيا من جهتها تعترف لفرنسا بحق السهر على ضمان الاستقرار في المغرب ، وهذا يعني أن السلطان والسيادة المغربية لم يعد لهما وجود في منطق المعاهدة .

من هذه الحركة التجارية مدعية ان اقتصار هذا النشاط التجارى على البواخر المغربية فقط يفتح الباب للمشاركة الفرنسية ، وبالتالى لهيمنتها على الموانىء المغربية . ولم يجد المخزن بدا من التراجع عن قراره والاعلان ان « البواخر الالمانية تتمتع بحق الملاحة الحرة بين ميناء وآخر ، شأنها فى ذلك شأن البواخر المغربية او الاجنبية ، وحمل البضائع دون تعرضها الى تمييز او محاباة » . واضطراب عنق المانيا الى الشواطىء المغربية الغنية بالسمك ، وطالبت بتطبيق مبدأ حرية الصيد عليها حتى لا تستفيد اسبانيا وحدها من ذلك طبقا لما خولته لها معاهدة 1861 .

يظهر من خلال ما سبق ان هم المانيا الرئيسى كان يكمن فى الحفاظ على بقاء الاسواق المغربية مفتوحة فى وجه تجارتها وصناعتها وابعاد كل هيمنة اقتصادية فرنسية عليها . وهذا ما اكده وزير الخارجية الالمانية بقوله : « لنا مصلحة كبرى فى ان لا توصد البلدان التى لا تزال تتمتع باستقلالها فى وجوهنا ، وان لا تجد صناعتنا وتجارتنا الابواب مغلقة امامها فى بلاد تنبىء بمستقبل زاهر ... لقد كانت السيادة المغربية موضوعة موضع نقاش ومصالحنا الاقتصادية فى المغرب مهددة بالزوال والانقراض (7) » .

واذا كانت المطامع الاقتصادية الحافز الاول والرئيسى على التدخل الالمانى فى المغرب ، فهناك كذلك الجانب الدبلوماسى اورد الاعتبار . لقد ابت الحكومة الالمانية الا ان ترد على الصفعة الفرنسية بالمثل وتكيل لدلكاسى صاعا بصاع حتى ترد اعتبارها وتسترجع مكانتها بين الدول العظمى ، وتعطى الدليل لفرنسا على ان رتق الامور وفتقها لم يعد بيدها . انها ارادت « ان تلحق بفرنسا هزيمة دبلوماسية وتسومها الخسف . وتلك سياسة نفوذ واعتبار اكثر منها سياسة واقع » .

---

(7) Afrique Française - 1905.

الـوضـــع الداخلـــــــــي :

لم يبق المغاربة امام التهديد الفرنسي مكتوفي الايدي ولا راكنين الى الدعة والاستسلام ، بل سارعوا الى المطالبة بعقد مجلس لاعيان البلاد قصد اعطاء رايه في موضوع مشروع الاصلاحات وتجديد الخطة الواجب اتباعها حتى يجلى الكرب عن النفوس ويسلى الغـم عـن القلـوب .

واجتمع مجلس ضم اعيان البلاد كان من نتائجه ابعاد الوزراء الذين يتمثلون بودهم لفرنسا ، ورفع ضريبة الجمرك ، ومنع تصدير الحبوب ، والاستغناء عن المساعدين الاوربيين الذين يعج بهم البلاط ، وتوقيف اعمال البعثة العسكرية الفرنسية .

وقام العلماء ، وفي مقدمتهم محمد الكتاني ، بدور فعال في اسداء النصح للمولى عبد العزيز ودفعه الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات والاقدام على هذه الخطوات لحسم الداء وقطع الشعث .

ولما شعرت وزارة الخارجية الفرنسية بالدور الذي نهض به العلماء لما لهم من قوة معنوية رادعة وتاثير بالغ ، طلب دلكاسي من المفوض الفرنسي ان يسعى بكل الوسائل الى تقسيم العلماء وتوزيع كلمتهم وكسر شوكتهم . « المطلوب منكم الاستخبار عن اهم العلماء الذين يجب كبح زناد معارضتهم ويؤمـل في كسب عطفهم . لـن ارفض لك الوسائل الكفيلة بتقريبهم منـا » .

وردت فرنسا على قرار السلطان بابعاد مساعديه الاجانب باعطاء امرها الى الفرنسيين المقيمين بفاس ان يغادروا هذه المدينة . وحذا الانجليز حذوهم . وبذلك ظهر واضحا ان الدولتين على المغرب الب واحد . ووجدتها المانيا نهزة فاغتنمتها ، واعلنت عن عدم تضامنها مع الدولتين الاوربيتين وابقت قنصلها في فاس .

واستقبل القنصل الالماني من طرف السلطان مرات متوالية اكد خلالها تضامن بلاده وتاييد حكومته للمخزن في قراراته ، وطمانه على ان فرنسا لا يمكنها أن تشن حربا على المغرب لان « المعارضة الفرنسية ترفض بكل ما اوتيت من قوة فكرة كل تدخل عسكري في المغرب » ، ولا ترغب في تعرية حدودها مع المانيا من قواتها المسلحة ، وان المانيـــا ترفض المعاهدات المبرمة بين فرنســـا وحليفتيها انجلترا واسبانيا ، وتنصح السلطان بعدم الخضوع للضغط الفرنسي الرامي الى حل مجلس الاعيان لان مثل هذا الاجراء قد يوري زناد الفتنة ويحل عقال الثورة ، وبتقوية المخزن لجانبه بالتحالف مع بوعمامة والقبائل الثائرة في الجنوب الشرقي لدرء كل هجوم فرنسي على الحدود المغربية الجزائرية .

وعلى الرغم من بوادر التاييد الذي عبرت عنه المانيـــا للمغرب ، فان المخزن كان يخشى ان تتقاعس من نصرته في الوقت المناسب وتتكرر التجربة الانجليزية التي اكتوى بنارها لانه كان يدرك الحوافز الحقيقية التي دفعت حليفته الحالية الى اتخاذ مثل هـــذا الموقـــف .

وكان الجانب الالماني يخشى بدوره من امكانية تراجـــع المغرب عن موقفه وانقياده الى التهديد الفرنسي ، لا سيما ان المغرب عرف بسياسة اذكاء الصراع بين الدول المتكالبة عليه وتوسيع الشقة بينها ليبعد خطر الغزو عنه او على الاقل تاجيله . « ان المخزن قد يجعل من المانيا عدوة لفرنسا دون ان يتخلى عن شيء لاحداهما ، وتلك سياسته التقليدية الوفي لها » . (8) ولذا ، اكد القنصل الالماني لوزير خارجية المغرب ان تاييد المانيا للمغرب ووقوفها بجانبه في محنته لا يمكن ان يكـــون دون مقابل ، وزاد

---

8) تصريح للمفوض الالماني .

مؤكدا : « واذا ما أظهر المغرب سوء نيته ، فاننا ، على غرار بريطانيا ، قد نوقع مع فرنسا معاهدة تعود علينا بالنفع » .

الصراع يبلغ اوجه : لم تعد المانيا فى غيبة عن المسألة المغربية . لقد ظهرت على مسرح الاحداث وابانت عن اهتمامها البالغ فى ضمان مصالحها التجارية والاقتصادية فى المغرب ، والتجأت لتحقيق غايتها هذه الى استغلال الصراع المغربى الفرنسى حول مشروع الاصلاحات من جهة ، ونسف الاتفاقيات المبرمة بين فرنسا وحليفيها من جهة اخرى . وفى هذا الاتجاه ، سارع مفوضها فى طنجة الى الاتصال بممثل فرنسا ليخبره بان حكومته فى حل من كل المعاهدات المبرمة حول المغرب .

وقامت الحكومة المغربية من جهتها بتسليم مذكرة الى ممثلى الدول الاوربية المعتمدين بطنجة تطالب فيها بضرورة عقد مؤتمر دولى لايجاد حل للمشكل ، وبذلك يكون المخزن قد اعطى القضية المغربية ابعادا دولية وفك الحصار الفرنسى المضروب عليه .

وسلم وزير الخارجية المغربية للمفوض الفرنسى رسالة مفادها ان السلطان لا يمكنه أن يعاكس شعبه المتمسك بقضايا بلاده والذى لا يمكنه ان يتغافل عن مسألة تكتسى اهمية مصيرية .

وامام صلابة موقف المخزن وتشبثه بالمؤتمر ، اضطر وزير خارجية فرنسا الى استعمال التهديد المباشر والتلويح بامكانية غزو المغرب عسكريا . وعلى اثر هذا التهديد ، اشعرت الحكومة الالمانية السلطان بقبولها حضور المؤتمر ، وصرح وزير خارجية ايطاليا من جهته : « نود ان نصل الى اتفاق مع الحكومة الفرنسية ، ولا نسمح لها بالتصرف فى المسألة المغربية فى غيبة عنا ، والا سنعتبر عملها اعلانا للحرب » . وصرح السفير الالمانى المعتمد بايطاليا من جهته : « ان الحكومة الالمانية كانت مستعدة للبحث عن حل . واذا ما سمحت القوات الفرنسية لنفسها باجتياز الحدود

المغربية لتنفيذ تهديدها ، فان القوات الالمانية لن تتاخر عن عبور الحـــدود الفرنسيـــة » .

لقد تأزمت الاوضاع الدولية وصارت تنـــذر بالانفجار بيـــن لحظة واخرى . وكانت الحكومة الفرنسية ، في واقع الامر ، لا ترغب في الدخول في صراع مكشوف مع المانيا . فحاول رئيس وزراء فرنسا ايجاد مجال للتفاهم مع الحكومة الالمانية مما اضطر بلكاسي الى تقديم استقالته . غير ان الالمان بقوا متشبثين بعقد مؤتمر دولي ، مدافعين عن وجهة النظر المغربية المطالبة باحاطة مشروع الاصلاح بضمانات دولية . وعبر عن هذا التاييد احد المسؤولين الالمان لاحد الدبلوماسيين : « اننا متمسكون بانعقاد المؤتمر واذا لم ينعقد فستبقى الاوضاع (في المغرب) كما هي عليه الآن . وعليكم ان تدركوا جيدا اننا بجانب المغرب » .

ولحمل المغرب على التراجع عن موقفه الحازم ، التجأت الاوساط الاستعمارية في الجزائر الى استمالة الجيلالي الزرهوني المدعو « بوحمارة » ومساعدته بالمال والعتاد ، وفتحت الحدود الجزائرية في وجه انصاره ليتنقلوا بكامل الحرية بين القطرين ، وعقدوا ـــ حسب بعض الاقوال ـــ جلسة عمل تقرر اثناءها قيام بعض العناصر الفرنسية بقطع المواصلات بين السعيدية ووجدة لتسهيل سقوط هذه المدينة في يد المتمرد المغربي . واحتجت الحكومة المغربية على هذه التحركات المخلة بامن المغرب دون ان تجد آذانـــا صاغية لاحتجاجهـــا .

وتدخل سفير المانيـــا في باريس لدى الحكومة الفرنسيـــة مستنكرا التدخل الفرنسي في شؤون المغرب . وعندئذ اضطـــر حاكم الجزائر للاعتراف بان العلاقات الموجـــودة بين السلطات الجزائرية وانصار (بوحمارة) ما هي الا علاقات تجارية وشخصية .

واغتنمت الدبلوماسية الالمانية وتمشيا مع خطتها فرصة

زيارة الامبراطور غليوم الثانى الى لشبونة لاستدراجه الى زيارة مدينة طنجة لما له من سمعة طيبة فى العالم الاسلامى ولما سيكون لهذه الزيارة من وقع حسن فى نفوس المغاربة .

وترمى الخلفية التى كانت تحرك الدبلوماسية الالمانية للقيام بهذه الزيارة الى تبديد كل تخوفات المخزن وتقوية ثقته فى المانيا والاعتماد عليها وبالتالى رفض المشاريع الاصلاحية الفرنسية . وبهذه الطريقة ، تكون الدبلوماسية الالمانية قد كسبت مغنمين : ثقة المغاربة ودفعهم الى التمسك بموقف الرفض ازاء فرنسا من جهة ، والتاكيد لفرنسا انها قادرة على عرقلة مشاريعها وتوقيف « غزوها السلمى » ، وان دولـــة عظمى مثلها لا يمكن ابعادهـــا بسهولة عن قضية دولية هامة كقضية المغرب من جهة ثانية .

وبعد مراوغات كثيرة ، ومساعى عديدة ، استطاعت وزارة الخارجية الالمانية ان تنتزع من قيصرها موافقته على زيارة طنجة (31 مارس 1905) . وكان ذلك بالنسبة اليها نصرا عظيما وفوزا مبينـــــــــــا .

واستقبلت الجالية الالمانية الضيف الكبير بكثير من الحفاوة والتعظيم لانها كانت تعقد كل آمالها عليه . ولتهدئة روعهم وتامين جاليتهم ، اكد لهم ان المانيا تعتبر المغرب بلدا يتمتع بكامل سيادته وانها لن تسمح لاية دولة بوضع يدها عليه وبسط نفوذها على ربوعه : « ان وجودى بينكم يدل على الاهتمام الذى اوليه للمسالة المغربية وارجو ان تعود زيارتى عليكم بالنفع العميم » .

ونشرت المفوضية الالمانية بعد مغادرة غليوم الثانى المغرب بلاغا اكدت فيه ان الامبراطور صرح لعبد الملك الذى اوفده السلطان لاستقباله : « اقوم بزيارتى هذه الى السلطان بصفته ملكا مستقلا . وارجو ان يبقى المغرب ، تحت سيادة السلطان ، بلدا مفتوحـــا للمناقشة السلمية بالنسبة لجميع الامم على قدم مساواة مطلقة دون

احتكار او تبعية . وترمى زيارتى الى طنجة أشعار الجميع أنى قررت العمل ، بكل ما هو فى استطاعتى وبفعالية ، على المحافظة على مصالح المانيا فى المغرب . وبما أنى أعتبر سلطان المغرب سلطانا كامل السيادة ، فمعه وحده سابحث عن الوسائل الكفيلة بضمان هذه المصالح . وفيما يتعلق بالاصلاحات التى ينوى القيام بها ، فانها تدعو الى الكثير من الحيطة والحذر ، ومراعاة شعـــور السكان الدينـــى حتى لا يختل الامـــن » (9) .

المؤتمـــر ومواقف الوفـــود :

ولما تيقنت الحكومة الالمانية من أنها طامنت من غـــرور فرنسا وكسرت من زهوها ، بادرت الى نشر فكرة عقد مؤتمر دولى لحـــل الازمـــة .

وكانت الحكومة الفرنسية تدرك ان من مصلحتها فتح حوار مع المانيا ، غير انها كانت تخشى ان يترتب على مثل هذا النقاش ردود فعل وخيبة امل لدى الراى العام والبرلمان الفرنسيين .

وبعد مفاوضات طويلة ونسافسة تعارضت فيها المصالـــح وتباينت المنافع ، توصل الطرفان مبدئيا الى انعقاد المؤتمر بمدينة الجزيرة باسبانيا بدلا من طنجة . ولم تقبل فرنسا المشاركة الا بعد حصولها على اعتراف المانيا بمصالحها فى المغرب وعدم اثارة مشكلة الحدود المغربية الجزائرية والمعاهدات المبرمة فى الموضوع سنتى 1901 و 1902 . واستطاعت فرنسا ادراج مشكل الشرطة والماليـــة .

واخيرا انعقد المؤتمر فى 15 يناير 1906 ، وكان مناسبة ضمت ابرز الدبلوماسيين لا ليجدوا حلا للصراع المغربى الفرنسى حول الاصلاحات وتقديم الضمانات التى ينشدها المغرب ، بـــل

(9) - Documents Diplomatiques «Affaires du Maroc» - 1901 - 1905. Pierre guillen : Le Maroc et l'Allemagne - P.U.F. Paris 1967.

لبحث الخلاف الفرنسى الالمانى وايجاد مجال للتفاهم يضمن مصالح الاطراف المتنازعة على حساب المغرب .

كان الوفد المغربى مناطا بمهام فى منتهى الخطورة والدقة ، اذ عليه أن يشرح وجهة نظر المغرب ويدافع عنها ويحاول مـــا وسعته المحاولة اقناع الوفود بها ، ويواجه المناورات والمساومات التى تجرى فى الكواليس ويبعد عن بلاده الاخطار التى اخـــذت تهددها كلما تقدمت اعمال المؤتمر . ومما زاد فى صعوبة ماموريته وتعقيد مهامه عدم المامه باللغات الاوربية وعدم ثقته بالمترجمين الذين استعان بهم رغم ما بذله الصحفى المصرى على زكى من عون ومؤازرة من موقف الضعف هذا ، بات الوفد المغربى الذى يتراسه محمد الطريس ، وقد ناهزت سنه الثمانين ، قليل الثقة بنفسه ، خائفـــا مضطربـــــا .

اما موقف الوفد الفرنسى ، الذى كان ضعيفا اول الامر بسبب الازمة الوزارية التى سرعان ما خمد لظاها ، فقد تشبث بمطالبه الرامية الى مراقبة فرنسا تهريب الاسلحة الى المغرب ، وانشاء بنك دولى تسند رئاسته اليها لما لها من ديون على المخزن (68 مليون) ، واشرافها على تنظيم الشرطة وتدريبها بحكم وضعها فى الجزائر (دولة مجاورة) وقدرتها على تقديـــم مدربين جزائريين يتكلمـــون اللغـــة العربيـــة .

ووجد الوفد الالمانـــى نفسه محاصراً فى المؤتمر . وكانت اول غاياته فك هذا الحصار المضروب عليه بالتظاهر امام الوفود الاخرى وايهامهم بانه لا يبحث عن مصلحة خاصة ببلاده وحدها ، وانما همه الاكبر ان تحصل كل دولة على نفس الحقوق التى تتمتع بها فرنسا فى المغرب ، وان تكون لقرارات المؤتمر صبغة دولية . ان اتخـــاذ المانيا مثـــل هذا الموقف وانتهاجها هذه الليونـــة الدبلوماسية امر راجع الى العزلة التى شعرت بها فى المؤتمر

والتاييد الذى حظيت به فرنسا من بريطانيا وايطاليا وبعض الدول الاخـــــــرى .

وكان موقف الوفد البريطانى موقف تأييد مطلق لفرنسا لان فى ذلك دعما لمصالح بريطانيا المتفق عنيها فى معاهدة 1904 ، وابعادا لالمانيا من الشواطىء المغربية لان كل امتياز يمنح اليها قد يحمل تهديدا خطيرا لجبل طارق والتفوق البحرى الانجليزى . وقد عبر عن هذا التأييد وزير خارجية بريطانيا فى رسالة بعثها الى ممثل الوفد البريطانى فى المؤتمر يقول فيها : « ان الغاية الرئيسية تكمن فى مساعدة فرنسا على السير فى خطتها » (10) .

واما الوفد الاسبانى فكان لا يخفى قلقه من الاتفاق الالمانى الفرنسى المبرم فى شهر شتنبر والذى على اساسه عقد المؤتمر . وقد رات اسبانيا ان فى هذا الاتفاق اهمالا لحقوقها . ومما زاد فى اضطرابها مساعدة الفرنسيين للجيلانى الزرهونى الذى يرابـــط بعسكره قرب مستعمراتها فى شمال المغرب . واستنادا لهذه المعطيات ، نهج الوفد الاسبانى سياسة محايدة نحو المانيا على خلاف ما فعلت بريطانيا ، وتدخل مطالبا بان يكون الاشراف علـــى الشرطـــة داخـــل البلاد مـــن اختصاص السلطـــان ، وفى الحدود الجزائرية لفرنسا ، وفى تطوان لاسبانيا بالطبع ، وايد الطلب الالمانى بانشاء بنك دولى تكون عملته البسيطة الاسبانية .

ولم يكن لموقف باقى وفود الدول الاخرى المشاركة فى المؤتمر اهمية كبرى ، اذ كان الاتجاه السائد بينها ، باستثناء وفد الولايات المتحدة ، يميل الى تايد فرنسا اكثر من المانيا . فكانت ايطاليا تسير وفقا لمصلحتها والاتفاق المبرم بينها وبين فرنسا والذى فتح لها طرابلس الغرب ، وهو موقف يضعها فى اضطراب وخجل ازاء

---

(10) روم لندو : تاريخ المغرب 9 القرن العشرين — بيروت 1963

المانيا حليفتها فى الحلف الثلاثى . اما موقف الولايات المتحدة فكان موقف حياد وتوفيق لانها لمتكن لها مصالح فى المغرب .

استغرقت اشغال المؤتمر ثلاثة اشهر كاملة تميزت باصطدام وجهات النظر وتباين المصالح والمطامح على الرغم من تركيز الوفود على ضرورة الاحتفاظ بسيادة السلطان وسلامة اراضيه ، والتاكيد على ضمان سياسة الباب المفتوح .

وتلخصت المشاكل المطروحة للنقاش والتداول فى ست نقط رئيسية :

1 ــ تنظيم الشرطة : وهى اصعب قضية واجهت المؤتمر لما لها من اهمية بالغة على مستقبل العلاقات بين الدول ومصير المغرب كدولة مستقلة . وتقدمت المانيا بثلاثة اقتراحات رفضت كلها من طرف فرنسا التى كانت تعارض كل نقاش فى الموضوع وتسعى الى ان تكون امر تنظيم الشرطة وفقا عليها ، وان اقتضى الحال ، فلا مانع من قبول اسبانيا دون سواها .

ودافع الوفد الالمانى على أن يبقى تنظيم الشرطة من اختصاص السلطان مع اعطائه حرية اختيار المدربين اللازمين ، وبهذه الطريقة يكون قد ابعد فرنسا عن ابتلاع المغرب .

واخيرا تقدمت الولايات المتحدة بمقترح يجمع بين العناصر التى تقدمت بها بعض الوفود حلا وسطا للخروج من الازمة . ونص اقتراحها الذى وافقت عليه فرنسا والمانيا على تحديد عدد افراد الشرطة ما بين 2000 و 2500 يوزعون على الموانىء الثمانية ، ويشرف على تدريبهم مدربون فرنسيون واسبان تحت مراقبة ضابط تركت حرية اختيار جنسيته للسلطان .

2 ــ انشاء بنك المغرب : تقدم الوفد المغربى بمشروع ارتكز فى عناصره الايجابية على المشروعين الالمانى والفرنسى ،

واقترح ان يكون لهذا البنك حرية القيام بالعمليات المصرفية وضمان الحكومة المغربية فى القروض العامة ، والقيام بالعمليات النقدية التى يامره بها السلطان ، وان يكون رأسماله مليونى جنيه استرلينى توزع على خمسة عشر سهما يعطى احد عشر منها الى الدول الموقعة على الميثاق ، وسهمان لمجموعة الابناك التى ساهمت فى دفع قروض 1904 ، وأن يعين مغربى نائبا لكل رئيس قسم أجنبى ، ويكون عدد المغاربة المسؤولين لا يقل عن عدد الاجانب .

ورفض هذا المشروع من طرف المؤتمر بزعامة الوفد البريطانى الذى نسفه ، وحاولت فرنسا جعل مقر البنك فى باريس فى الوقت الذى طالبت فيه المانيا بان يكون فى طنجة .

وانتهت الوفود الى الاتفاق على أن يكون رأس مال البنك 15.400.000 فرنك يوزع على اربعة عشر سهما تحظى الدول المؤتمر منها باثنى عشر ، ويعطى سهمان الى الابناك المساهمة فى قروض 1904 .

3 ــ مراقبة تهريب الاسلحة : تقرر فى هذا الموضوع النص على العقوبات التى يتعرض لها المهربون ، ووضعت شروط قاسية لبيع اسلحة الصيد وتنظيم تداولها فى المغرب وتركت صلاحية الاتفاق لفرنسا واسبانيا مع المغرب .

4 ــ تنظيم الضرائب : رفض المؤتمر حق المغرب فى تنظيم ضرائبه والزيادة فى ضريبة الجمرك لتنمية موارده حتى يستطيع القيام بالاصلاحات التى ينوى الشروع فيها . كما رفضت رفع قيمة الرسوم المؤداة على البضائع الاجنبية عند دخولها الى المغرب الى عشرين بالمائة ، بل خفضتها الى اثنين ونصف . وتقرر ان يؤدى الاجانب المقيمون فى المغرب ضريبة الترتيب ورسوما اخرى تحدد بين الحكومة المغربية والسلك الدبلوماسى المقيم بطنجة .

واخيرا صادق المؤتمر على نقطتين اخيرتين تتعلقان بتنظيم الجمارك والاشغال العمومية .

نتائج المؤتمر :

اول سؤال يتبادر الى الذهن هو : ما هى النتائج التى حصل عليها المغرب من هذا المؤتمر ؟

لقد ادرك الوفد المغربى الاخطار التى يحملها ميثاق مؤتمر الجزيرة بين طياته ، فامتنع عن التوقيع وتجنى وتعلل بانتظار توصله بالتعليمات السلطانية فى الموضوع .

وتدخل المفوض الايطالى لدى المولى عبد العزيز لاقناعه بالتوقيع ، وتسكين روعه وتبديد خوفه لانه كان يرى ان هذا الميثاق اداة تشجيع وتنمية المصالح الاوربية على حساب سيادة المغرب واستقلاله .

وامام تردد السلطان فى توقيع المعاهدة ، تدخل ملك ايطاليا فكتور ايمانويل مراسلا عبد العزيز : « ان تبنى القرار العام بكامله يزيد فى مقام جلالتكم رفعة ومقاما ويضيف خيرا لا يقدر الى امبراطورية جلالتكم » (11) .

ولما توالت الضغوط على السلطان ، وقع على الميثاق المشؤوم فى 18 يونيو 1906 .

وما كاد المؤتمر ينهى اشغاله حتى وجهت فرنسا واسبانيا مذكرة الى الحكومة المغربية تحثانها فيها على الشروع فى تطبيق بنود الميثاق ، وسلم المفوض الفرنسى الى وزير الخارجية المغربية مذكرة جاء فيها : « كلفتنى حكومة الجمهورية الفرنسية ان اخبركم انها لم تعد تقبل التباطؤ والتسويف فى تنفيذ

(11) روم لندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين — بيروت 1963 .

الاصلاحات ... وهذا ما دفع حكومتي الى رفض هذه الوضعية ومطالبة المخزن بانجاز تعهداته كاملة . ولذا ، فانها قـررت احتلال مدينة وجـدة » .

وفي مطلع فجر التاسع والعشرين من مارس ، اقتحمت قوات البطش والعدوان مدينة وجدة واظهر المستعمرون ما نفثت به نياتهم ودغلت به صدورهم . فسارع المخزن الى قبول مـا طلب منه وانجاز ما امتنع عنه . وكان اول اجراء اتخذه هـو تجريد المواطنين من السلاح ومنعهم من حملـه .

وبادر وزير الخارجية الى مطالبة الحكومة الفرنسية بالتراجع عن احتلال المدينة المغربية ، او على الاقل بتقصير مدة احتلالها ، مقابل تلبية جميع مطالبها ، لان المخزن لم يعد في استطاعته الدفاع عن حوزة الوطن وارعاد فرائص الاعداء وردهم بغيظهم على اعقابهم كما كان يفعل ايام عزه وقوته .

وساء المواطنين ان يروا المخزن وقد ضعفت قواعده ، وانحلت عصمه ، واخذ كل يفكر في المصير والخلاص منه ، فيقوم برد فعل المناسب حسب عقليته وايمانه فانقضت جماعة مـن المواطنين في مراكش على طبيب فرنسي ظنوه عينا من العيون المنبثة داخل البلاد واردوه قتيلا (12) (19 مايو 1907) . فازدادت الوضعية تفاقما وعلاقات المخزن مع فرنسا تشنجا اذ طلبت الحكومة الفرنسية عزل باشا المدينة والاتيان به الى طنجة وهو طريح الفراش . والتمست الحكومة المغربية التراجع عن هذا القرار والاكتفاء بتعيين باشا طنجة مكانه . وكان للموقف المخزني اسوا الوقع على نفوس السكان ، وعارضوا بشدة اقالة الوزاني باشا المدينة واعلنوا عن تمسكهم بموقفهم هذا لان فيه حفظا لكرامتهم وذودا عن حرمتهم .

(12) اسمـه : موشـان Mauchamp

وانتشر الغضب بين المواطنين فى انحاء البلاد كلها وضمدوا على المستعمرين وتوهجوا غيظا ، فنشب شجار بين جماعة من الاوربيين وجماعة من المغاربة بالدار البيضاء ، ترتب عنها مقتل ثمانية اجانب كانوا يشتغلون فى ميناء المدينة (31 يوليوز 1907). فانتهزتها القوات الاستعمارية الفرنسية فرصة سانحة لاظهار قوتها وبأسها واحتلال المدينة ونشر الدمار والخراب فى اقليم الشاوية المجاور لها .

لقد كانت تخوفات المغاربة فى محلها لانهم كانوا يدركون أن المؤتمر سيسدد لا محالة سهم الفتن والثورات الى المغرب ويحل عقالها ، ويوجد للاستعمار الفرنسى ذريعة الى بغيته ومجازا الى متوخاه .

الدار البيضاء ــ احمد الضمضومي

---

(1) - André Tardieu : La conférence d'Algésiras. Paris Alcan, 1909.
(2) - Pierre Guillen : L'Allemagne et le Maroc P.U.F. 1967.
(3) - Mohamed Omar Hajoui : Histoire diplomatique du Maroc. Paris, Maisonneuve, 1937.
(4) - Afrique Française 1905.
(5) - Documents diplomatiques - «Affaire du Maroc» (1901 - 1905).
6 ــ جلال عيسى : المغرب الكبير ــ مصر 1966 .
7 ــ روم لاندو : تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، بيروت ، 1963 .

محمـد زنيبـر

بدون سيارة

(قصـة قصيـرة)

كان لابد لى أن ادرك ، فى يوم من الايام ، وسط زحمة الشواغل والمشاكل ، ان المشى على الاقدام شىء له اهميته ، سيما وان حياة اليوم علمتنا ان ننسى انفسنا واجسامنا حتي نستفيق ذات يوم فنجد الجسم يخاطبنا بالحاح واستعجال كصاحب الدين يطالب بحقه : « العقل السليم فى الجسم السليم » . منذ اسابيع صارت هاته الحكمة البديهية تبرز لى فى نصاعتها وتفرض على نفسها فرضا

اصبحت عازما هذا الصباح علـى الانتقال من النظرية الـى التطبيق . لا سيارة منذ اليوم الا للمسافات الطويلـة والاسفار ! التزام جدى وصارم ! خرجت ، اذن ، ادفع بساقى فى فضاء الارض اكتشاف جديد للشارع ، لوطء الغبراء .

نعم ، اننى بهاته الخطوات الاولى ازددت قربا من الناس والاشياء ورأيت وجوها وجوها طالما بعد العهد بها ، وصافحت ايادى لم المسها منذ اعوام . وعرفت اسرارا واخبارا فى كل ركن من اركان الطريق . وتمليت برؤية كل شجرة وحجرة . واستمتعت بهبة النسيم وسط فضاء الارض المديدة وسمعت الباعة المتجولين

ينادون علـــى بضاعتهم المعروضة بافانين من القول . دنيا غنيـــة متكاملة طريفة . الا ما اجمل المشى فى الطريق !

واخيرا وصلت الى صاحب الفواكه . انه واقف خلف عربته كالمعتاد يشجع الزبائن باشارة العين وحركة اليد . هكذا حالـــه منذ سنوات لا استطيع تقدير عددها وهو لا يريم مكانه حتى يلج الليل فى النهار . ولما رآنى انكرنى : « كيف ؟ عم الحاج بدون سيارة ! اللـــــــه ! اللـــــــه !

وحاولت ان افسر له الامر ، ولكن تبين لى انه لم يفهم لانـــه ظـــل يتأسف على ويرثى لحالى وكأنى اعانى نكبـــة من النكبات ! وواصلت سيرى حتى خرجت الى الشارع الكبير . السيارات تنثال من الجهتين انثيالا سرعتها المخيفة تثير فى نفسى قشعريرة لانى — على ما خيل الى — انظر اليها ، اول مرة ، كراجـــل .

وفجأة وقفت سيارة بجانبى . فالتفت ووجدت احد الاصدقاء يحيينى بابتسامة ويقول : « لا بأس ، يا اخى ! اين السيارة ؟ تفضل احملك الى حيث تريد .

— لا بأس . تركت السيارة فى البيت . واردت ان اتعاطى للمشى اثناء هذه العطلة . انها احسن رياضة بدنية بالنسبة للكهول مثلـــــى .

— اى فكرة غريبة هذه خطرت عليك ؟

— غريبة ! وما وجه غرابتهـــا ؟

— لست ادرى ! وانما يظهر لى انه من الصعب ان يترك الانسان السيارة فى البيت ويذهب راجلا

— عجيب ! وتجد فكرتى اغرب من فكرتك ؟ ! واذن لاى شىء تصلح هذه الارجل والاقدام التى خلقت معنا ؟

— لنترك هذا ! ولكن قل لى ، صحيح انه ليست لك اى مشكلة بالنسبـــة للسيـــارة ؟

ــ انك لتدهشنى ! انه لا يوجد اى مشكل

ــ على كل حال ، انا تحت تصرفك .

ــ اذا اردت ان توقف السيارة جنب الطريق ، وتسير معى ، فمرحبـــا واهـــلا !

ــ اذن ، لم يبق لى الا ان اودعك ، فالشغل ينتظرنى بكل استعجال . وودعنى وانا اقرأ فى عينه انه غير مقتنع بكل ما ذكرت له . وهكذا ، بدأت ادرك فى اللحظات الاولى من تجربتى ان السير على الارجل لم يعد امرا بسيطا وان الانسان اصبح فى حاجة الى ان يجد له مبررات وتفسيرات يلقى بها الاصدقاء والفضوليين .

ومع ذلك اى شىء اجمل وامتــع من هذه الجولة الهادئــة الحرة ؟ ! السيارة تريك العالم من خلال نظرة تجريدية ، فقيرة نفقد معها الارتسامات العابرة المتزاحمة فى النفس وزنها وجوهرهــا . فلا ترى شخصا بعينه ، وانما ترى الانسان يدب على الارض هنا وهناك ، ولا ترى شجرة بسماتها ومميزاتها ، وانما ترى الشجر يتمثل فى خضرته المتكررة فقط . والطريق مجرد خط يكون مستقيما تــارة ، وملتــويــا اخـــرى .

اما الان ، وانا راجل ، فانى ارى فى مئات من الامتار ما لم اشاهده من السيارة فى مئات الكيلو مترات ! لقد عدت الى عالم الملموس ، فاقتربت من الازهار وشاهدتها فى برعمها ، وشاهدتها متفتحــة تسطع بالوانها . والتقطت الحصا مــن الارض ونعمت بملاستها واختلاف الوانها وتأملت عروقها وتنوع اشكالها . ولمحت مشهد المقهى من بعيد ومن قريب ، وقد تعد الزبناء ، كسل على شاكلته ، منهم من تقرأ فى محياه علامات الانتظار ، ومنهم من يطالع جريدته فى هدوء . ومنهم مــن يثرثر ويقهقه وحوله جماعة مــن

الاصحاب ، ومنهم من يكثر النظر الى ساعته وكأنه عيل صبره . ومنهم من يطلق امامه نظرات حالمة تخترق الفضاء نحو افق بعيد مجهول ، ومنهم من يقتل وقته بالنظر الى الحسناوات اللائي خرجن محملات بافانين من الفتنة والاغراء . وهناك شابان يتناقشان بحرارة وحماس واشارات قوية تقطع الفضاء فى كل اتجاه وتؤكد الرغبة العميقة فى الوجود والحياة ! ولعلك توافقنى ان مثل هذا المشهد يستأهل ان ينتقل اليه الانسان ماشيا على الاقدام !

وبدأت ارثي لاصحاب السيارات واقدر ما يعانون من حرمان واشفق من جهلهم وقلة وعيهم ، وانا اقطع الجسر وانظر الى ماء النهر الرقراق ، والزوارق بأشرعتها الخفاقة تنساب فيه خفيفة رشيقة تتهادى باجمل ما فى النفوس من احلام .

وكنت فى غمرة من السرور بهاته الجولة الاولى ، واذا بسيارة تقف بجنبى ، يسوقها شاب أنيق مهندم عرفت فيه احد طلبتى القدماء ، وبجانبه شابة اعتقدت انها زوجة ، لاول وهلة ، لانى بطبيعتى حسن الظن . واتضح ، فى هذه المرة ، انى لم اكن مخطئا ، اذ نزل من السيارة وقدم لى شريكة حياته ، وتعجب من وجودى راجلا بهذا المكان المليء بالغوغاء والضجيج . وبدون ان يسألني ، كان خياله قد سرح سرحة بعيدة وادرك واقع أمرى . فتصور انى تخليت عن سيارتى لانها اصبحت قديمة متلاشية ، وانى ، نظرا لوضعيتى كأستاذ ، لم استطع ان اجددها . فكل شيء ارتفع ثمنه ، وبخاصة وسائل الرفاهية . واخذ يتساءل بذلاقة لسان ويده على قلبه : « كيف يستطيع المعلم والاستاذ والموظف المتوسط ان يحصل على السيارة والمسكن والكسوة والثلاجة والتلفزيون ؟ ... الله يكون فى العون !

واكد تاسفه ورثاءه لحالنا بدقيقة من الصمت . ثم استأنف كلامه بلهجة لا تخلو من اليقين : « لا شيء احسن من القطاع الخاص

يا استاذ . لقد زهدت فى الوظيف منذ اول يوم ولم اندم على ذلك . فانا ، الان ، محل ثقة رؤسائى اسافر واتجول . والمسكن مضمون والاجرة مرتفعة مع الشهر الثالث عشر فى كل سنة . واذا ما نزلت نازلة ، فالمال موجـــود .

واستل من جيبه علبة سجائر اميريكية وناولنى لفافة واخذ واحدة لنفسه وبعدما اشعل السيجارتين بواسطة « بريكى » من الذهب ، ناولنى العلبة : « خذ ، يا استاذ ، هذا قليل فى حقك !

ثم التفت الى زوجـــه التى تطل علينـــا من نافذة السيارة : « هذا ، يا عواطف هو استاذى الذى تعلمت عليه النحو واللغـــة والادب وكل ما يتصل بالعربية . ولكن مع الاسف ، لا اجد الفرصة لاستعمال كل تلك المعلومات القيمة التى حصلت عليها . ولعلك توافقنى ، يا استاذى العزيز ، ان القطاع الخاص من الصعب ان يسير بالعربية الفصحى . نعم ، ليس من السهل عليك ان تعترف بذلك ، لان وظيفتك ان تدافع عن العربية ، ولكن ، فيما بيننا ، بدون شهود . . . اليس ما قلت صحيحا ؟

وانطلق فى ضحكة مدوية ، فى حين ان زوجة تذكره باستعجال : « لا تنس المـــوعـــــد .

ــ آه ، كدت انسى يـــا عواطف .

ثم التفت الى قائلا ــ استاذى . تفضل . هل احطكم فى مكـــان مــــــا ؟

ــ اشكرك . ولكنى خرجت بنية المشى على الاقدام .

ونظر الى غير مقتنع وقال . ــ على كل حال ، انا فى خدمتك متى احتجت الى ، يـــا استـــاذ

ومرقت السيارة الجميلة امامـى كالسهم . واتكـأت على درابزون الجسر اطل على الماء . واسترجعت افكارى المبعثرة وانا انظر الى امتدده وانسيابه المتموج . واشعلت لفافة ثانية انتهى بصعود دخانها ، بينما المجاذيف تزحف بالزوارق من ضفة الى اخرى وتوقع ايقاعها الرتيب . وبدا لى ان مشروع السير على الاقدام الذى اتخذته لنفسى كرياضة لا يخلو من لقاءات ومفاجآت . الا انى لم الاحظ فى نظرات الناس وردود فعلهم ما يشجعنى . وانطبع فى نفسى انى اثير التعجب اكثر مما اثير التحبيذ . ومع ذلك ، فأنا مقتنع بأنى على حق ، كل الحق . وكل ما هنالك ، هو انى بدأت تنفيذ مشروعى فى الطريق العمومية حيث يكثر المارة ويظهر المعارف والاصحاب . فلو اسدلت عليه شيئا من الستر وملت الى طرق خالية ومسالك وسط الاشجار ، لتجنبت فضول المتعجبين وازعاجهم ، واضفت الى فائدة المشى لذة الاستمتاع بالطبيعة واستنشاق الهواء النقى .

* * *

وكانت هنالك فى منعرج الجسر حرجة كثيفة تساير النهر على مسافة طويلة . ولطالما مررت عليها بالسيارة دون ان اخترقها . لقد كنت اتخيلها كمنطقة من الظلال المديدة التى لا يغشاها الا العاطلون ومن لا ماوى له ومن لا يدرى ما يصنع بوقته .

عرجت نحوها لاول مرة وسرت فى مسلك ضيق ، وسط الاشجار الباسقة . المكان خال هادىء ، والسكون يكاد يكون شاملا لولا صفير بعض الطيور ، وبعد مدة من المشى ، لمحت شبحا يتحرك من بعيد ويقترب نحوى . وشيئا فشيئا بدأت اميز رجلا يرتدى سروالا قصيرا الى الركبتين صدرية قطنية وهو يجرى الخبب ولما اقترب منى عرفته وجها وتناسى لى اسمه . انه من كبار الموظفين . ووصل الى جهتى بعد لحظة وجيزة ومد الى يده مصافحا « صباح الخير ، يـا استاذ

ــ صبـــــاح الخبـــــر

لقد كان العرق يتصبب من جبينه ، وبطنه الضخم البـــارز يتناقض مع رأسه الصغير وساقيه الهزيلتين . ولما رأيته يلهث وهو مسند ظهره الى شجرة ، لم اتمالك ان قلت له : « هون عليك ، يـــا سيدى ، واسترح قليـــــلا .

ــ آه ! ان الاستئناف صعب . لقد تخليت عن هذه الرياضة منذ أزيد من ثلاثة شهور . وكنت وصلت الى نتيجة جد محمودة اذ فقدت كل ما كان زائدا على وزنى المعقول ...

وتوقف قليلا ليستعيد انفاسه ، ثم استأنف كلامه : « وكنت مسرورا حقا . ودفعنى الارتياح الى عدم الاحتياط . فأبحت لنفسى من المأكولات والمشروبات ما كنت امتنعت عنه بعزم وارادة . ثم هنالك المآدب الرسمية وغير الرسمية . فأضعت نتيجة المجهود الاول فى اقل من شهر وصرت الى حال اسوأ ما كنت عليه .

ــ افهم ذلك جيدا ، يا سيدى . ولكن الذى لا افهمه هو كيف ان غيرنا يقيمون المآدب تلو المآدب والحفلات تلو الحفلات ، دون ان يزيد وزنهم على المعتاد ، بينما نحن المغاربة يظهر فينا اثر ذلك بسرعة تفوق التصور ! واعرف العديد من الاشخاص الذين كانوا فى اول الاستقلال يمتازون بخفتهم ورشاقتهم ، فأصبحوا ، اليوم ، من اضخم الناس جثة ! وابدأ من نفسى . بما خروجى ، اليوم الى هذا المكان ، الا لانى انا ، ايضا ، بدأت اتضايق من وزنى .

واثرت ضحكة بهذه الملاحظات ، فقال : « ان غيرنا يأكلون ويشربون ليعيشوا ، اما نحن فنأكل ونشرب لننسى هموم الحياة التى لا تنقضى ! احفظها ولا تنقلها عنــى !

وضحكت بدورى وقلت : « هذا صحيح ، لاننا كثيرا ما نجلس

على المائدة ونتناول اشهى الاطعمة دون أن نعرف ماذا نأكل !

— انى اودعك ، يـــا استاذ ، وانا سعيد بلقياك . واذا اردت أن تشاركنى فى رياضتى ، فأنا كل صباح فى مثل هذا الوقت هنا

ومضى الجسد المترهل يثير الغبار وراء ظهره ويتلوى ويدلدل عضلات افخاذه ويترنح ويعرق ، كل ذلك ليفقد بضع كيلوات مـــن الشحم واللحم ! ولاول مرة ، تراءى لى بكامل الوضوح ان النقصان خير من الزيادة ! ولكن ، ايحق لحياة الانسان القصيرة ، بأحلامها ومطامحها ، ان تظل متوحلة فى هـــذه المنطقة الضيقة ، منطقـــة الزيادة او النقصان فى الكيلوات !

وواصلت السير ، وانا احمد الله على انى لست الوحيد من نوعى . والتويت بخطواتى مع منعرج ضيق لا اظن ان الاقدام تطأه كثيرا لما يكسو ارضه من العشب الاخضر . واوهمنى الظل الوارف انى دخلت الى دنيا اخرى بعيدة عن دنيانا المعتادة ، دنيا تحلـــو فيها العزلة وتنطلق الاحلام بكل يسر . واخذت الحرية فى ناظرى معنى آخر ، اذ لم تبق مجرد فكرة فى الذهن ، بل اصبحت المسها فى الاشياء . كل الطبيعة التى تحيط بى تجسمها وتفصح عنها .

وفجأة سمعت بالقرب منى دويا غريبا : وقع اقدام وشىء شبيه بالاغصان التى ترتطم ببعضها ، فالتفت ورأيت رجلا فى اسمال يفر ويتلفت فى حذر . فطمأنته بأعلى صوتى : « لا بأس عليك يـــا رجـــــــــل !

ونظرت الى المكان الذى كان قاعدا به ، فرأيت عدة اغصان رقيقة مقطوعة على مقياس واحد وموسى وسلكا طويلا واشياء اخرى . وفى جانب آخر ، كان البعض من هذه الاغصان تحول الى « سبسيات » منجورة ومعدة للاستعمال وظل الرجل واقفا على بعد

يرقبني في حذر ، مثل الهر الخائف من ربة البيت . وكررت له ندائي : « ارجع ، يــا رجل الى مكانك ولا داعي الى الخوف ! »

ورأيت الرجل يتحرك نحوي وجلا ، وكأن الشك لم يزايله بعد . واخيرا ، اقترب مني . لقد كانت الشيخوخة تغزوه من كل جهة ، وان كان ما يزال شابا . واخيرا ، عاد اليه شيء من الاطمئنان وقال : « لقد خشيت ان يكون احد الحراس ! . . . انهم يمسكونني كالمجرم ويطالبونني بذعيــرة على هذه القضبان القليلة ويهددونني بكــل العقوبات . وانا رجل مسكين ذو اولاد ، ولو وجدت شغلا غير هذا لما بقيت لحظة واحدة في هذا المكان .

وما تمالكت ان قلت له : « وتستطيع ان تعيش بمثل هذه الحـــــرفــــــــــة ؟

ـــ وما العمل ؟ اني ، على الاقل ، اشغل يدي . وفي بعض الاحيان اجد المشتري ، وفي اخرى افتقده . ولكن الحراس لا يجدون سبيلا ألا علي ، بينما يتركون المصائب الكبرى تجري في هذه الغابة ، دون ان يلتفتوا اليها !

ـــ كان الله في عونك ، يــا رجـــل .

وتركته لشأنه وانصرفت . وكلما توغلت في طريقي ازداد الظل وتحولت الغابة الى اجمة ، وتكاثر المرج بأزدهاره الصفراء . وبعد ان مشيت مدة لمحت على جانب المسلك سيارة اثارت انتباهي لاول وهلة . وكلما دنوت منها ، تاكد لدي اني اعرفها . واذا بي اجـــد نفسي وجها لوجه مع صديقي الذي لقيته في آول الصباح واعتذر لي بالشغل . لقد كان جالسا على سجادة وبجنبه كاتبته يغازلها . وما ان وقعت عينه علي حتى اربد لونه . وادرت وجهي عنهما في الحين استحياء وتعففا وواصلت سيـــــري .

والحق اني فوجئت بما شاهدت ، لقد كنت اعرف صديقي

هذا منذ زمان واعرف كل شيء عنه . فهو اب محترم لعائلة محترمة وهو موظف مرموق يشرف على احدى المصالح الادارية . فكيف ، يــا ترى ، سمح لنفسه ان يقع في احابيل الهوى ومع كاتبته وفى الوقت الذي كان يجب ان يكون فى مكتبه ؟ وادركت آنذاك ان علمى بالناس محدود وان الانسان لا تنقضى عجائبه من اخيه الانسان . ومن يدرى ؟ فلعلنى غر ســاذج اثق بما يثار حولى من كلام عن القيم والاخلاق ، بينما يتخذها بقية البشر حلية وزينة يلبسونها فى اوقات وينزعونها فى اخرى !

وعلى اى ، فقد خطوت خطوات سريعة جادة ، كانى افر من خطر . واذا بى اسمع ركضا وراء ظهرى ولهاثا . والتفت ، فوجدت صديقى ينظر الى وهو لا يدرى ايبسم أم يعبس . فبادرته ، قائلا : « انت ، ايضا ، تتعاطى لرياضة الركض ؟

قلت ذلك وانا اريد ان اطمئنه واظهر له اني لم ار شيئا . ولكنه لم ينخدع وقـــال :

ـــ لا تضحك على ولا تقل انك لم تر شيئا ! وكنا عليك الله ! كنا مستريحين منك لما كنت تمتطى سيارتك !

ولم اتمالك عن شيء من الضحك وقلت ، ـــ هذا اعتراف ضمنى بأن السير على الاقدام اكثر فعالية فى ممارسة الحياة وشؤونها

ـــ بـــل قل انه اكثر فضولا وازعاجـــا !

ـــ اراك يـــا اخـــى ، تعطى الاهمية لما ليس له فى عينى اى اهمية . وهل تظن انى اعيش بدون قلب وبدون عاطفة ؟ انى اعذر العشاق وانعم حالهم . وقد قرأت عنهم ما لا يعد من الكتب والروايات والقصص وكأنى فاجأته بما قلت ، اذ ظل ساكتا مبهوتا ، ثم استأنف

الكلام بعد لحظة غبية كلمة العشاق قوية في حقي ... لا ، كل ما هنالك هو انني ابحث عن لحظة من الاستراحة وسط الاشغال المضنية ناجدها في محادثة شابة حسناء .

ــ لا يوجد شيء اكثر صوابا مما تقول !

ــ ولا تنس اننا في هذا العصر نعيش على أعصابنا أكثر من اى وقت مضى وان الاطباء ينصحون الانسان المجهد ان يبحث لنفسه عن وسائل الراحة والتسلية .

فقلت له ببلادة مقصودة :

ــ نعم ، نعم . لهذا اصبحت الحياة العائلية ضرورية . ففيها البيت الذى تتخذ منه ملجأ دائما وتجمع فيه كل ما تحب . وفيه الزوجة الوفية التى تضفى عليك من افانين حبها وحنوها ما لا تستطيع ان تجده في بقية العالم .

ــ حقا ، حقا ... البيت ، الاسرة ، الزوجة ، الاولاد ، كل هذا جميل . ولكن الانسان يعيى حتى من البيت ! فهنالك ، ايضا ، مشاكل ، والزوجة لا تعطيك دائما كل ما تريد ... لاحظ اننى بعد مرور اكثر من عشر سنوات على الزواج ، أحب امراتى اكثر من اى وقت مضى . فحبنا ، في الحقيقة ، رأسمال يزداد ويتراكم مع مرور الزمان ! ... ولكن هذا لا يمنع بعض الشهوات العابرة ... ! الحاصل ، وكلنا عليك الله ، لقد اضطررتنى ، اليوم ، الى كل هذه الاعترافات !

ــ كن مطمئنا ، يا اخى ، وعد الى صاحبتك هنيء البال ، فلعلها استبطأت رجوعك .

ــ انا ، من هذه الجهة ، اكثر من فيلسوف لانى لا اغتر بكلام الحسناوات ووعودهن .

وودعنى شاكرا بعينه وانصرف مطمئنا ، بينما واصلت سيرى فى ذلك المسلك الملتوى الذى لا تخترق الشمس منه الا بقعا صغيرة . وسرعان ما تبين لى انى ، بالفعل ، فى جنة الغرام . فقد رأيت سيارات وسيارات منها الفخمة الساطعة الالوان ومنهـا الصغيرة المتواضعة . وشاهدت عشاقا آخرين فى مخابئهم الظليلة ورأيت ، بالرغم عنى ، مناظر غرامية مختلفة وانا أمر خجلان مثل المذنب . وبدا لى انى اصبحت فضوليا ومزعجا وسط تلك الطبيعة الوادعة التى تغطى بجناحها الاخضر آلاف القبل والعهود والمواثيق والاكاذيب والحيل ! نعم ، لقد كنت زائدا وسط تلك الغابة ، وانا اسير وحدى لا افعل شيئا مما يفعل الاخرون . ولهذا ، فقد بدا لى من الاحسن ان اغادر ، مثل آدم ، تلك الجنة ولو لم آكل من فاكهتها شيئـــــــــــا !

وفى هذه المرة تابعت الخطو تلو الخطو دون ان التفت لشىء حتى خرجت من الغابة وعدت ادراجى الى المنزل . ووجدت زوجى تنتظرنى بعصير البرتقال المثلج الذى اعدته لى به بعد هذا المجهود الجسدى . انها تضحك من فكرتى ومن مشروعى كالعادة .. ولعلها تعرفنى اكثر مما اعرف نفســـى !

قضيت بقية اليوم فى شؤون اخرى وفى الغد استأنفت رياضتى بعد الغداء . ومررت من نفس الطريق ، لكنى تجنبت الغابة فى هذه المرة مخافة ان اروع العشاق الامنين وفضلت ان اسير فى الشوارع الكبرى وسط المدينة ، حيث المتاجر والعمارات . وســـرت مدة طويلة دون أن يستوقفنى احد . بل داخلنى شىء من العجب لما رأيت بعض المعارف يمرون علىّ فى سياراتهم دون ان يؤدوا اى تحية وهم ينظرون الى بوجوه مقفلة ، كأننى اتيت جرما . وذهبت بى الظنون فى تعليلات مختلفة ، منها المتفائل ومنها المتشائم . فقلت : ربما الفوا ان يرونى على متن السيارة ، فلما شاهدونى

راجلا لم يعرفوني . وقلت : ربما لم ينتبهوا الى ، على عادة اصحاب السيارات الذين ينظرون بشيء من الترفع الى الانسانية التى تسير على اقدامها . وقلت : لعلني فقدت فى اعينهم منزلتى حينما اصبحت امشى على قارعة الطريق بدون سيارة . فكأنني تدحرجت بدرجات متعددة فى السلم الاجتماعى ورجعت القهقرى .

فانا ، على اى حال ، حرمت فى هذا اليوم الثانى من عطفهم ومساعدتهم . الشيء الذى حز فى نفسى ، والحق يقال . لقد كنت اريد أن اتعاطى لرياضة المشى ، ولكنى لم اكن اريد ان افقد من جرائها رصيدى من العطف الذى احطنى به لدى الاخرين . فلم يا ترى اجدنى اليوم اسير كالغريب لا من يخاطبنى ، ولا من يحيينى ولـــو مـــن بعيــــد ؟

وما عتمت ، وانا اجتر هاتـــه الافكار ، ان رايت سيارة تحاذينى على حافة الرصيف وتتوقف ، ويناديني صاحبها باسمى . فاكتشفت داخلها صديقا قديما لم اره منذ زمان طويل ينظر الـــى بعطف ممزوج بشـــىء مـــن الاستغراب ، ثـــم قال : « لا باس يـــا اخــــى ؟

ــ لا بـــــــاس

ــ والعمـــل ؟ بـــاس ايضـــا ؟

ــ طبعا لا باس . انك تثير عجبــى

ــ لا ، لا ، لانى اراك تسير هكذا بدون سيارة وفى وقت الاشتغـــــــــــال . »

ــ فظننت انى صرت عاطلا . انى بالفعل فى عطلة

ــ صحيح ؟ انت فى عطلـــــة ؟

ــ نعم . ولكن قل لي : يخيل الي انك تخفــي عني شيئا

ــ لا شيء مجرد الفوال ... اشاعات تأكدت الان من عدم صحتهـــــا

ــ اشاعات ؟ اشاعات ؟ ... وهل بلغت هذه الدرجـة من الشهرة حتى تروج في شأني الاشاعات ؟

ــ اولا ، انك لست رجلا غفلا لهذه الدرجة ، ثم ان الاشاعات تمس كـل النـاس

ــ ومـاذا تقـول هـذه الاشاعـــات ؟

ــ بما انها خطأ ، فما الداعي للاهتمام بهـا ؟

ــ اذن ، فيها شيء يشين سمعتــي ؟

ــ لا ، واللــــه

ــ ولم ترفض أن تصارحني بهـا ؟

ــ بما انك تحرص على معرفتها ، فافتح اذنيك وانصت جيدا : لقد اشيع انك فصلت عن العمل وانك اضطررت لبيع سيارتك وصرت تتسكع في الطرق . هذا ما سمعته بالصدفة في هذا الصبـاح .

فلم اتمالك عن شيء من الضحك وقلت : « معك حق . انها اشاعة لا تستحق ادني اهتمام ! » وودعني وانصرف .

ورأيت وجوها اخرى مقبلة تمر امامي ، بدون تحية ولا اشارة ، فاتضح لي ما كان خفيا . وما سرت خطوات اخرى حتى رأيت سيارة صهري تقف بجنبي وقفة مدوية وهو يقول بملء صوته : « اني ابحث عنك منذ اكثر من ساعة »

ــ لم يكن بيننـــا اى موعـــد

ــ طبعـــا ، ولكن النبـــا ازعجنـــى ..

ــ النبـــا ؟ اى نبـــا ؟

ــ لا تقل لـــى انــك لست علـــى علـــم !

ــ او كذلك انى خالـــى الذهن من اى شىء

ــ هذا عجيب ! لقد تكلم التليفون في بيتك اكثر من ثلاث مرات . وكان الهاتفون اصدقاء يسالون عنك ويقولون لامراتك انهم مستعدون للتضامن معك لانهم سمعوا انك فصلت عن العمل لغير سبب معقول . وصدقت اختى النبا وها لها الامر . وظننت انك اخفيت عنها سر القضية .

وما تمالكت عن الضحك مرة اخرى بملء اشداقي وقلت : « هذه مغامرة عجيبة . اني ، والله ، ما كنت اعتقد ان السير على الاقدام غنى بكل هذه المفاجئات والغرائب !

ــ اذن ، لا صحـــة مطلقـــا للنبـــا ؟

ــ بالطبع . لنظر الي جيدا . هل ترى في علامة الشخص بلغ درجة من التمرد حتى ينفصل عن العمل ؟

ــ اذن ، تعال لنطمئن اختي . فقد تركتها في حالة تأثر

وامتطيت السيارة جنبه ورجعنا الى البيت وفى الباب رايت ثلاثة اشخاص واقفين ، كانهم ينتظرون عودتى . كان احدهم هو البقال ، والثانى اللبان ، والثالث بائع البنزين . نزلت من السيارة وحييتهم قائلا [illegible] باس [illegible] ايها السادة ؟

فأجابنى احدهم ، ــ لا بأس ... وانما غير خاف عنك ... اننـــا فى حاجـــة الـــى الفلوس

ــ ليس هذا وقت الحســاب المعتاد بيننا ، وآخر الشهـــر مـــا زال بعيـــــدا

ــ حقا ، حقا ! وانما ... طرات طوارىء ...

ــ طرات لكم كلكم ، هكذا ، بالاتفـــاق ؟

ــ انك عارف بكل شىء ، يا عم الحاج ، ولا داعى ...

ــ آه ! فهمت ، فهمت . اذن انتظرنى قليلا

وفى البيت ، وجدت زوجى قد استعادت مرحها المعتاد بعد ان عرفت جلية الخبر فضحكنا جميعا وطلبت منها مفتاح السيارة .

لقد كانت « الزريقـــاء » (هكذا كنت اسميها) تنتظرنـــى فى ظل المرآب ساخرة كالخليلة المنتصرة بعد ازمة فراق وهجران . ها انه ذا ، يا زريقاء ، اقدم لك توبتى . لقد ادركت بعد فرقتنا القصيرة انك جزء من شخصيتى ، بل انت وجهى الذى اصبح يعرفنى بها الناس . تعالى ، اذن ، نخرج سويا حتى يتأكد المجتمع المغرور مـــن تصالحنـــــا .

وزمجر المحرك زمجرته القويـــة وتحركت « الزريقـــــاء » بجناحيها البراقين خفيفة رشيقة . ومن النافذة خاطبت الثلاثـــة الواقفين بالباب كالحراس : « بعد قليل ، سيكون المال فى يدكم ، ايها الســادة . انتظرونى قليلا . » وبعد لحظة عدت بالمال . ولكن لم يكن هنالك احد بالباب كأن الارض ابتلعت البقال واللبان وصاحب البنزين . ونظرت الى لفافة الاوراق البنكية فى يدى باشفاق ، ثم رحت انهب الارض نهبا على ظهر الزريقاء ، عسانى استرجع منزلتى فـــى آعيـــن القـــــوم .

ســلا ــ محمـــد زنيبـــر

احمـد المدينى

لا تطابق

(قصة قصيرة)

رحيـل الـزمـن :

اتحير لا اعلم ان كنت سابدا من زمنى هذا ام من زمن آخر ام اترصد وجه الذبح لاونة فتكت وجه الروع وباتت فى زمن آخر اتحير لا اعلـم، او ان رعونة اجدادى ، تسبق الليـل والنهار يطوقان الزمن نانى سرت فيهما تيد التحمين والخطوات وتعالجنى الذكرى ولا تعالجنى تاهد نفسى وانشر بصرى يمتد على مدى امتى افق متمدد تراكم على صدى ما تراكم فى ذاكرتى وتعود الى الخطوة الفاترة النفس احضنها جميعا للعلة ثم انتشر على العالم رداء ضحكة مضاعفة ساخرة . اهبه ؟ لولا ؟ ولا ابالى ؟ وحين يمتد امامى الجمع الغفير تتحول الضحكات جراحا ويولد فى كل جرح مخفر وعدينة تغلق بالغلق وبالمجانح ، ثم ليس بين الارض والسماء سوى خيط واه من التاثير وخلفيات التضليل ومناورات المهادنـة .

التفت فأراني الجمع الغفير وأراني زرافات ووحدانا شعوبا وقبائل تسعى في الحلم تسنى حراب الكوابيس وفى الليالى القمراء تزركش مخادع الانبياء والصديقين ومضاجع من فتك بالقبيلة سباها وتبددت عجلى من دخان غليون تبدد وبدد واستبد هي حكمة العصر الجديد وأن عاندت فلن تحصد سوى الاشلاء عليك ان تجمعها من كل الاصقاع حيث ترامت وتبددت مزقا تسعى لتجنى للمخادع والمضاجع ما لذ وطاب وها هنا ينبجس صوت يثقب صمت الزمن يهدر في سكون القبيلة بجر الليل والذيل والاصقاع الغافية والعيون المطبقة موج الليل بحر الليل والاسماع المخاطة بالعنكبوت التلاشى وكواكب الدوخة المستعارة تلو دوخة تلو دوخة تلو تلاوة تتلى علينا حكمة مصداقا للتلاوة المباركة ـــ الكون تشكيك واحد لا ينقطـــــع .

فالتفت ثانية فأراني الجمع الغفير يطلب المغفرة ويسأل بدوات الصبح بوارق الامل النعسان كواكب اخرى تتاجر في احلام مريضة واخرى مهووسة بالسكنية والطمأنينة والخير العميم والجمع الغفير يتصعد من عرقي يسري من بين شرايين نفرته من باطـــن الارض في سورة للهلاك واحدة ما ابعد الصرع من المصرع ابعـــد ما بين الزمن المتكلس والحلم الهارب الهارب سورة بين النفور واختراق الشرايين وهلكم مشهدا آخر لترنح بشرية شكلي ومتأججة تهلا بغضب اسطوري اندفاعة بدائية تحوم بها البخور والبرانس المقطوعة الذبائح الذبائح والاجساد البضة المسبية في المحارب وتحت القباب ظلال الصوامع ازيز الالات تنسحق تنسحق تتهتك تتفتت من لحمي اربا مزقا تزيق للعالم ردائه المزركش اربا مزقا مخلطة بالاهداب بالشرايين في ذلك المكان حيث التقى الجسمان واحد ملطخ من كل شيء اعزل لا سيف ولا صهيل والآخر يجر غنائم القرون الفائتة الى القرون الموتة وذلك في ظلام النهار ظل فوق

خيل واشهدتني بين الجمعين فلا دمى فار توهج ولا وجهى تكلح او تيبس ولا الارض مادت لتعجن هدا الوحل تخطف بارق الوهـــج الظامية صوتى فاصبح من لحظة الذبح والسفك المبيت والفتكة المهجية نواميس لخلق وخنق جديد لرب جديد تكون القبيلة آمرة له ومن صحوة الجمع بين الفتكتين وبين النشر والابادة تلاحق اجيال ه الاولى لعتق السبايا وغنم الغنائم ، ويضج هذا الخلط فى رأســى ويركبه شعوبا وقبائل وتزحم الخطوة المسافة يمهها المسيف فى السياف وصولة اخرى لايتاح لها الظهور ... هاهى ذى تنبت ، هل تنبت بين الجلد والظهر بين العين والهدب بين البصر وخطف البصر وبين الموت وتبيك الهلاك بين زمن مخصى وزمن مخصب بين السبى وبين العتق بين لهاث تلحل وغيم واحد بينى وبين شفا الجنون التداخل فى هذا الشاسع الشاسع ... لايتاتى ، تظل حوميمن ضمتك الدهرى تسكن ارضا تخصب لحظة ما بين نفوذ السكين وفورة الدم الزكى وما بين الجرح والتضميد النزيف آت يسيح وكنت اغمر وجهى اوجه غمرى واصنع مما يفصل الارض عن البحر نهرا من الدم ، ها هم يتعلقون يدى نظرتى بصرى المخطوف بين عوالم للانشداه واخرى تموج بكم ولا يكف التعلق ءالبحر يلعق من زبد الخلق ويهرب منهم نزيفى ليصنع من دمع دم القبيلة سيفا على حده تنبت الدور الكواكب من دم متكبد على حده تصحو القبيلة لا اصحو ندمى شاسع والفرحة هى المجال فكيف الفجيعة ؟ !

لانك آت حملت اليك على كف دهرى وجها تجمع فوق بنوره الف شاهد ووافت من العين لفتة من القلب يخنق نبضى بلذكر حبيب وجاءت لترهل الشبهات تشاهد عرس الحقيقة وجئت ملا جسدى لهيب السياط والمتسرجلتا تتالف متن فليهما اهون اقرب لوجهك صوتك دمعك حسك رمحك لم دمى المستباح كنت لحمى مزق صدر فى كل اتجاه لانك آت حملت اليك لحمى دمى وذاكرتى على طبق مـــن

صمتنا الدهري وخاطبتك شاهد وكن شاهدا على زمن تمرغ فيه بنوك وانت تفىء تبدد عرض عشيرتك وهاهي ذي الآن توجه للبحر نظرة وفى الليل المتوج بالموت واليمك تنشد بكرة فلا الموت آت ولا انت آت ولا شيء يحدث بعد اليوم ، لانك راحل وترفع لوجه النجيمة راية .

زمن الرحيل :

الآن مضى على زمن اطول من الزمن وانا انشد السكينة فى هذه الديار واعتلى ارتخائى واستكانى واتلظى فى جحيم رغاسى السجينة ولا انطق لا بالغيب ولا بالسر ولا بالجهر اشهد واكتم واتستر على عاهاتى ولا اسفر عن عورتى ولا اترصد عورات الناس فالخلق ذاهب آت وجدته مملوء بالبتور والخدوش كله مزق تستعر فيه الرغاب ولا تطال يداه الوهم او الحقيقة ان هو الا نفثات من هذا الذى يتنمل بين اصابعه وان هو الا تخريب ما يعشش فى مخه — قالوا وهم اصدق القائلين — انشد فى فراغى فراغا اوسع فالارض تضيق وصدرى يتسع للحلبات الاسطورية وللرقص الارعى الجنونى ومدنكم تصعد جليدا فوق قشرتى تارة مبحوحة مسمورة تارة طوابق واسفلتا وحناجر تارآت اخرى ، فاى الطرق اوصل للوصول اقرب لدرب النجيمة ابعد من الفرح اوهى من صرح التلاشى — لا تجيب وتستميت فى صمتك تصمت فى استماتتك تتوالد الاشياء من ذاتها تكدسا وتراكما وتزدحم تخبطا ولا تنفك تتلوى من ذاتها تكدسا وتراكما ويمصر بعضها بعضا فى عينيك وذاكرتك تهيج تهيج من كثبان الصحراء المكمومة الى رؤوس القمم المقطونة يمتد خلق بلا راس وبلا قامة . متكالب يستقر فيك حسن الصدم والضرع جثة ما بين الكثب والقمة والصدع صليب هذا الوطن وحيث التفت الشرخ خريطة الشرخ كيان الشرخ هوس خطوط على الجلد والعظم مقياس

لحرارة الاشتغال او صقيع الرمم فلا تمكث ولا تستجير ولا تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم (!) ولا تصدع للحق النصح او للمشورة فعينك حسك نبضك مقذوف فى ضجيج الطبة وتهمس لانه جائع فهو قوى واقوى منك درب المشانق والمهج المستباحة .

الآن مضى على زمن كنت اجمع فيه الدن الى الدن وامتص بالحنجرة رشح الجموع اندفاع الغفير وابصر ذات اليميـــن وذات الشمال وخطى خطاى تقفز ترتعد الوقفة لا يقف بى زمان ولا مكان وانا فى موضعى لا اريم وحين جاءت جيت وقالت تعال تعال بنا نمضى ما اضيمنا قلت لن يكون مقامى بغير أرض تموج بلاد علـــى صدا تآكل تحت ثراهـــا زمان وخلق مهين . قالت ازفـــك عروس المحال أوقع من رعشاتك نبضا ومن زندك ترتفع الصارية ــ خيب ظنى الزمن الكلم المكلوم فما احسست الا والطعنة تهخر عباب الخلق المستباح فتزدحم الدور الى بعضها وتلتقى المنعطفات وتتضالب الشوارع والساحات التى ملؤها هدير كانت واذا وجهى ليس وجهك ايتها المدينة المتسولة المتوسلة وليس بين عروقنا جمـــــر لعبور او لقاء ــ فاعلنت الطلاق .

انا الآن اتآكل فى صمتى واقتات من دوخة الذاكرة ومن سفر الريح المشروخة الى الذاكرة وامن على الحشد الغفل بالقص والحكاية فاى حكاية تريدون وهذا هياجى يسيح زحاما فى الشوارع اقول صباحا واعبر اقول مساء وأعبر ومن الصباح المساء لا تكتمل دورة الاشياء يكون الاسفلت وحده ما تصدع من وقع الاقدام والعربات والرؤوس والسجل والجبال وتذرى الكثبان والمواكب الغادية الرائحة فاجتمع الى خلقاتكم فى حركاتكم وسكناتكم وحين يلغط الناس انتشر فلاع صمتى واترصد وقت خروج الحكمة فتفرع الحلقة احشاءهـــا وأمعاءهـــا فتبرز اثداءهـــا من كـــل فـــج عميق ثنية وشبابـــا وكهولا عن بكرة أبيهم يهللون ويهتفون يفرحون ويمرحون ويهتفون

ثم ما يلبثوا ان يتفرقوا زرافات ووحدانا شعوبا وقبائل ليلتقوا في العيد الجديد في المجزرة المقبلة .

الآن مضى عليك حين من الدهر كنت تجمع فيه السؤال الى السؤال لا تقرع المنطقة على السندان فراسك بينهما مسند ومقروع كنت تضم الجرح الى الجرح حتى غمرت بالفجيعة ونطقتك في وجوههم بالفرح المزور .... الشجر وتهاجر مع الطير تضحك للشمس للقمر في ليالي الضياء ، وكانوا هم مزروعين في الطرقات وفي المنعطفات يتلصصون ... المزور بين الخلقة والاخرى تتابعت الحشرجات تسعى الى اللقمة بنظرة واهنه واخرى ممزقة بـــذل السؤال . رأيتك طفلا تقفز تترنح في ساحات وباحات البلاد تعتلي المنعطفات يتلصصون يغتصبون براءة وزهو الصبا يغتالون وهج الفرح ، كنت طفلا ولم تعبأ ولم تحس بعرك الزمن وقلت غدا سأولد من وهج الفرح الاتى ومن فيء يجيء من شجر الوطن المستباح غدا — كنت تنتظر ان تميد الارض وان يترعرع الامل وحين وجدت نفسك تكبر والارض لا تكبر شمرت ساعديك ثم ارتخيا فالطاقة هنا تهدر بددا بـــددا بـــددا

وعد يتخلل عينيك يا رجلي المبكــــــر

ها انت تتقافز على اللقمة لا تبلــغ الولادة ، صارت كـــل الطرقات والوجوه تعرفك اعزل . عرضت كل شيء فما رضوا ان يقبلوا منك شيئا . ورددت لو تسلخ عنك جلدك ، حاولت ذلك . مرة انتحيت مكانا خاليا وشرع يسلخ عنه جلده بحيطة وحذر حتى لا يمسه خدش أو تمزيق ، اقتلع شعر رأسه واهدابه وحاجبيه وما تحت ابطيه ووبرهما للملمات ، ونزع الجلد كله اخيرا وحمله ، وكان الدم ينزف وشهد الناس ، وجاء المزاد ونشره بين الاردية والمعروضات الاخرى وحين لم يساومه احد وحين لم يبهت الخلق أو يصبهم الذعر او القرف ، أخذ يطلب أي سعر لقاء اى شيء .

ملذا أصاب الناس ، على وصدو لى بضاعته ، وحين مد بصره قليلا وتناهى اليه صوت يردد : جلود آدمية بازهد الاثمان ــ جلود فاخرة ، جلود لا ضامرة ولا يابسة ، نقية طرية للدلك والفتك ، مهتضم كـــل شـــىء .

لم يكن الوحيد اذا من سلخ جلده ، ها هي ذى تسوق باكملها لسلخ الجلود الآدمية ــ وحينئذ تقسطم يطوف برأسه بين الناس وفى ذهنه ان لا احد سيخطر بباله ما هو مقدم عليه والا فهو الجنون الجنون تماما ، وشرع يطوف بعد ان لاك بضع جمل وعبارات رنانة بين ممدغيه قصد الترويج لبضاعته الجديدة ، وسأل : من يشترى جلدا بلحـــم بشرى ، من يشترى مخلوقا آدميـــا بنصـــه ومصـه وتمام خلقته كما خلقه عز وجل ! ايها المومنون القانتون الساجدون ، اطالب ببيع رقبتى ، ها انذا فتى طرى العـــود مريض ضخم اصلح لكل ما تريدون وتشتهون ، مطيع خدوم ومعطاء تأملوا هذه الطراوة والنعومة ، تأملوا هذه البدانة ، هذه ... كان عاريا تماما وكانت الأرض قد عجنت بالآدميين من صنفه والفضاء خراب ومن الخلف فراغ ومن الامام فراغ ولم يطلع بعد انسان جديد .

فـــســـك طلاســـم المظلـــوم :

بلمت النفسة وطويت الحرقة بالحرقات وسرت لا مرتفع الرأس لاسقاس البصـــر ، ولكنى سرت وقدامى امتد جحفل مـــن المراقين والموالين والتابعين والناهقين هو الخليط بين أنين ـــ المختلط أن يرتفع فى كل آن وما انفك السامد يصرع النفسد وهذا يلتوى تحت الاقدام وحولى امتد جحفل من الجياع المنهكين المرتضين يلتوى تحت الاقدام وحولى امتد جحفل من الجياع المنهكين المرتضين السائلين هو الانتظار الذى ــ صنعت رأسى بقبوته واخرجت منه بقايا التخريف والتضليل على انتظار وأى معاناة امسك بالرأس

الجسد الاول لا ينهار الطابور فهو ممتد فى جذور الارض وقاع النهر ممتـد ويمده الى اصطخاب البحر مشدود الى القمم المتصوفـة كانت العين النظرة جسرا للعبور بلا زاد ولا رخص للمرور مـن يستوقف جحفلى الخائض الغمر زحام المـدن العرجاء المطبقـة بزركشات الوهم وبالاشياء البلاستيكية تسرق همسى تركب ظلى تحتها تنوء الارض بكر الارض بغى ارض المراة ارض المنتهكـين الارض التى تسير تحت اقدامنا ونسفها من عرقنا صعد .

اقدامنا فى الارض جذع تحت والارض شجرة فغابة ، الغابة لا تحرقها النار لا تحصدها النار لا المناجل تغمر الطوب والأسفلت والاشياء البلاستيكيـة لا تطالب بالشهادة ولا بيوم القيامة لكـن بالوقوف ونعلن الاكتساح فصم عرى التطابق وشائج القربى الملفقة انهاء عهد الود والوئام وضع الاشياء فى صور منعكسة تعديل اتجاه النظرة تبديل الجلود المطنة بلحم عطن ينفر منه الخلق ، فـك طلاسيم المعلوم هذا ما تطلبه الارض الغابة الخلق الغابوى الكثيف باللحى والعانات والاجسام المشوشبة — دون الاضافر المصقولة . والجحفل يمتد تدامى اتجاه الخروج ، من والى اين الخروج ، كانت الازقة والدروب والساحات تطوى .. كل مزمع على الخروج يطوى زنقته ويلف البلاط والاسفلت مع الصوامع والمقاهى والدكاكين ومكاتب التشغيل فى لفائف كبيرة وصغيرة متوسطة مرتفعة منخفضة لا بالصاعدة ولا بالهابطة اى معتدلة وسط وكما قيل تخير الامور اوسطها اى لا تكن من هؤلاء ولا من اؤلئك كن مع لا احد كن مـع نفسك لا تكن مع نفسك لانك حينئذ كان مع احد وهو تتمسك و اذن لا تكن او ان شئت ولا بلس نحوه هذا تكن مع الكوالس والاسرة والاسرة والقاهى والشيايات والمجامات والسدود وبخاف الجهود وفى ايقاع الطبل والغيطـة لماوتكن — مثلا ستحصه فى الموتـم القادم قربانا وتقدم متحوطك شفاعة الشافعين تسربلك عنايـة

الاولياء والصالحين وكلمات ووصايا المؤمنين الصادقين وحين تبلغ الرحاب وتدنو من الاعتاب صل لربك وانحر أن شانئك هو الابتر وسينهل عليك النعيب والمطر والاغداق المغداق ويهل هلالك يا هذا يـا هذا .... وتمال بعدئذ وتعلق بأذيال الجحفل ، هو ممتد رأسه تطاول الشمس وقدماه تتقبان كلس الارض وتحط فوق أرض مرصعة بالعيون ، آه المسبلة ــ طووا الشوارع والنجوم واقراص الكمـك وبعض الفضلات لفائف كبيرة وصغيره فبعضها حملـوه وبعضها اودعوه شيخهم . جاءوا الشيخ الكهل الورع تحت قبـة الوهم يسكن ويجاور الفسيفسـاء ويصدع لامره ، ومنها ينشر حكمته على العباد بالميكروفون والبـراح وايقاع الطبل والغيطة ، جاءوه واودعوه ما ملكت ايديهم من لا شيء وقالوا : يـا شيخنا هـذه وديعة نودعها بين ودائع المودعين فهيه تغفر وتحنو لنا وللمائدين تبلنا والعائدين فينا ونسألك الوداع . وقل من يعمر الارض بعدكم يـا عبادى الضالين من يكنس الزاوية ويشعل الشموع وينذر النذور من يفرح البنين والبنات من يبهج الارض بالاعراس والختان من يسمع ويستجيب للدعاء بالميكروفون والطبل والغيطة وعـواء الكـــــــــــلاب .

أجـابـوا : الطير والغير البحر والبر والتتر الزبانية والمؤلفة قلوبهم نحن أجساد معقوفة لم تعد تصلح للرعى ولا للرماية وعدتنا لأية غدرت بنا الاية وها نحن نعلن الخروج وجهتنا القمم المتصوفة شمالا منها تبدأ المسيـــرة .

.. متداخلى وتخارج ، اهتز وتبدد وجه مروى مقتبع فى البدء كان وفلت اظلم من سعفه النخل الضيامر فى ليل حلكة هذا العصر . فات ولم ترتد الدعوة رجل الرجل ذو العامة الصخرية تقتعه ذو اتيروف كل يحم صليرت نطفة نفخ فى "القيم من اصلابه ولدت" الدنيا وعلى الاشجار والسنابل نبتت حبات من نطفه وتلقى الناس خطب !

ما جاءت للارض مخلوقات من نطفه تسمى فى الارض ازاحة وتبديــلا وتتنكب إلى الوطن فتجهضــل الزحف المجيد فى كل رحــم صارت دولة تحمى المظلوم من الظالم ليزغرد فى الارض بســلام توصى بالبقاء فى عشر البقاء .

تداخل وتخارج أطو الطين الى الاسفلت سف الريح والرمل لا تحمل شيئا من بقية هذا الوطن المحال اودع الكل لدى الشيخ الهمام وسر على المحجة البيضاء او الخضراء او الحمراء تتناسخ فى الألوان والجذوع التو بالنخل والجذع وزحف الغابة والهث أبدا فى ضمــا النهر الـــى الصحراء .

رفض التيه وطلب الخروج وبين الرفض والتيه كان النهـــر يمتد عميقا عميقا حذاء جذور الغابة .

الــــدخـــــــــــــول :

الان بلغت منطقة تنتهى عندها حدود وطنى نبدأ بعدها حدود اوطان . زادى جناحى بحث واختنقت فى قاع النهر وما تبقى مــن ارومتى الممتدة ما بين الكتف والقمة ـــ خارج والقمم المتصوفه بين ذراعى والبحر ملء صدرى . استوقفونى فى نقطة الحدود عند شفة تأسيس عمرانى الجديد وسألونى لماذا أطلب الهجرة ، قلت انه الخروج من الارض وقبلا خرجت من جلدى وذاكرتى تأبــى ان تخرج منى . تبادلوا نظرات تقافزت وتطايرت منها الكراســى والاسرة والمراوات والاشياء البلاستيكية . سألونى عـــــن مهنتى ، عرضت عليهم للتو آصيتى وجلدى ، تولوا مديرين مقززين طلبوا منى جواز الخروج وفى العين نبتت الغابة فى ذقنى وفطت وجهى وبقية اطرافى وعلى رأسى صمتت كل القمم المتصوفــة والاراضى القفر والقشر وضده قالوا : تكلم ، لماذا تصمت ؟ اخذت انتفض والجحفل من ورائى ـــ كانت قوائمهم فى كل مكان علوف

الغابة فى وحولى لعلع رصاصهم ولم تسقط الراية دوت مدافعهم فزغردت النساء رغم حصاد الاطفال اندفعوا وكنت مندفعا والصحراء والغابة يفسحان لنا الطريق وتعانق الماء والشجر . امتدت الغابة فى البحر ، خلفنا الحدود وراءنا فى حدود جديدة حل بنا المقام ، طرقنا الابواب . سألونى : ما خطبكم ؟ ، قلنا : جئنا نكنس ارضكم شوارعكم مخادعكم وغابة الوطن المباح ، نعرض عليكم جلدنـــــا وعرضنا ولحمنا بابخس الاثمان ولا نطالب بشىء .

ملاحظة : لم يحدث اى شىء مما هو منتظر عادة ، الذى حدث هو الخروج والدخول وما بينهما متاهة ولعله الوهم ولعلها الحقيقة غير أنى اتحير لا اعلم ان كنت سابدا من زمنى هدا ام من زمن آخـــــــــــــــر .

الـــدار البيضـــاء   احمـــد المدينـــى

مبـــارك الدريبـــى

كلب البــاشــا

قصـــــة قصيـــــرة :

لا نفترق الا في لحظة النوم ، عالمنا المرح واللعب البسيط . كنا صغار تجمعنا رغبات الصغار . المساواة والقناعة . كنــا ، جميعا ، اصدقاء . كثيرا مــا نصنع اللعب بأعواد القصب وخرق بالية ملونة ، نجمعها من مزبلة الحى . كنــا لا نفترق . وكثيرا مــا نشتبك في عراك مع اولاد الاحياء الاخرى . فكانت هذه فرصتنا لاظهار براعتنا امام بنات الحى في فن المطاردة واللكم والعض بالاسنان . كنا نقنع بالقليل . سعداء كنــا .

وهبت العاصفة على اعناقنا الهزيلة . كان جمع الابـاء يتداول ببيت رقية على التى تربي الغربان . استدارت العمائم في العمائم ولعقت الشفاه ما قالت الشفاه . اخفضت الرؤوس الى الارض . وانقت العيون . مسحت الايدى اللحى الطويلة والوسخة . ولم نستطع فعل عمل مــا . نزل حكم الاباء علينا ثقيـــــلا .

قالت لحية كبيرة وعمامة كمش لقلاق :

— وقع اختيار الباشا وهو الحاكم الوحيد بعد ساكن السماء على حينا . اغيثونا يا اطفالى .. قرات عيوننا الصغيرة سطور بعضها . سكتت الالسنه .

تكلمت لحية وسخة منشورة كسجادة على صدر مريض بالسعال :

— اتاخذون برايهم ؟ ؟ . اذن ، انتم لفى ضلال مبين .. ؟ ؟

قبضت علينا الايدى . غسلونا . البسونا اقمصة طويله وجديدة . فتحت الايدى الشيكارات التى لم تسبح بحمد الله . كضمت الصدور الوجلة الغضب . مسحوا وجوهنا التى سكن بها الذباب وبقايا المخاط . كنا سعداء . كانت القذارة لا تفارقنا لحظة . كنا سعداء . ثرثرت الالسنة على حسابنا . ولم نستطع فعل عمل ما . دفعتنا الايدى واللحى من خلفنا تكون سياجا رهيبا . ركبنا عربة قديمة يجرها حصان . كانت المطروح عامرة بالبؤوس . وعلى جنبات الاحياء ازدحمت الوجوه وعضت الاسنان فى اللحم البشرى . كنا كالقربان . العربة تدب كحشرة . سبقتنا عصابة شيوخ الحومات . كانت العمائم تكون من الخلف ديكورا متحركا ورهيبا . انزلونا . دفعونا . رتبونا فى صف كطلب السرعين دفعونا . صعدنا ، جماعة ، ادراج السلم الرخامى . لاول مرة ارى هذا المكان . جحظت عيوننا . فتحت افواهنا دهشة كبيرة اخرست الالسنة . كان الباشا يجلس على كرسى كبير وواسع . بطنه كبيرة كالمراة الحبلى . وجه صارم ومخيف منظار ابيض طربوش احمر يميل الى اليسار . صف المشاورية ، حوله ، فى اتزان عسكري . مكتب واسع كالبحر . وخريطة البلدة بها بيوت كالنمل على الجدار . التليفون . الشمس هادئة هى الاخرى . ربما خافت الشمس من الباشا ؟ . الرهبة فى الامعاء . وكثرت الغرغرة فى اسفل البطون والسعال . النوافذ هادئة الضوء والستائر

مخزنية ، صارمة وجميلــة . ركع آباؤنا امـام مكتب الباشا . صفعتنا الايدى من الخلف . سقطنا ركما سجدا . اوقفتنا الايدى مرة اخرى فى عنف . اخفضت الرؤوس عمائمها المتواضعة .

تكلم حاكم البلدة ، بعد ساكن السماء ، سعادة الباشا :

ـــ وقع اختيارنا عليكم بعد بحث دقيق . انكم من خيرة سكان احياء بلدتنا ادام الله عزها وحرس ولايتها . وكان اختيارنا هذا يرتكز الى ما عهد فيكم من مواضبة على الصلاة والصوم والنهى والامر اذا اقتضت الضرورة ذلك . وكلكم اصحاب اوراد . وهذا ما اثلج صدرنا ، فعطفنا عليكم كبيــر .

قالت العمائم المتواضعة التى توردت منها الخــدور :

ـــ الحمــد للــه . الحمــد للــه .

ارتفعت نبــرة الباشا الى مقـام صوتى كبيــر :

ـــ لدى كلــب كبيــر . انـه مريـض الآن . .

قالت العمائــم المتواضعــة :

ـــ شفــاه اللــه .

ـــ قــررت تكليف هؤلاء الاطفال برعايتــه .

ـــ هذا شرف عظيم يــا صاحب السعــادة .

سجدنا . ركعنا . تفرقنا ككمشــة الذباب . اغلقت الابواب . وعدنا فى صف طويل نحمل راية الذل .

الشمس قاسية كعين ابليس . الشوارع ذات اشجار طويلة ومقيمة فى عناية . فتح الباب الكبير . حديقة جميلة كوجه الجنة التى يحدثنا عنها الفقهاء ، اصحاب العمائم المتواضعة . ووقف الكلب من رقدته على سرير من حرير اصفر . كان يقرأ جريدة الصباح . تثاءب الكلب .

ـ احملونـــى يـــا صعاليـــك ..

وحملنا الكلب الحزين . وجهه اسود . اسود كغراب رقية على . وزنه كان ثقيلا . دفعت الكلب برفق دفعه صاحبى الاقرع على ظهر ولد طلمو اللعابة . وتدلى نصفه الاسفل طويلا كمرية الموتى قبض الاقرع على ذيل الكلب الزبير . كان اسمه الزبير . جذبه اليه . دخلت تحت بطنه . رائحته تخنقنى . وذهبنا واصوات الاجانب وصفير شفاه ابنائهم الصغار يتبعنا . كان الكلب الزبير يقـــرا جريـــدة الصبـــاح .

ـ بشويـــا يـــا صعـــاليـــك ..

الكلب يتكلم . طار التعجب فى عيوننا . التفتنا الى بعضنا فى الف سؤال صامت . نحن على الاسفلت ، كالدمى ، تتقطع ظلالهم على الطوار الطويل . الكلب ثقيل . تقف السيارات . ترسم الشفاه الكلمات من وراء زجاج النوافذ . تنفتح الافواه دائرتها طولا وعرضا على مسرح الوجوه المحمرة . ترفع الايدى المنظار . وتجفف عرق السخرية والضحك عن اعناق سمينة ومترهلة . ونحن نحمل الكلب الزبير الذى يقرا جريدة الصباح ، كلعنة ، فى وسط الطريق .

ـ بشويـــا يـــا حميـــر ..

لم انظر الى وجه الباشا فى حياتى . كان الباشا بالنسبة الى فوق الغمام ، هناك ، وراء سحب السماء . وفوق السحب الى اعلى ، رجل آخر ، يقولون عنه اصحاب العمائم المتواضعة :

ـ هو فوق السماء . يقترب من الله فى بعض الاحيان ، ويسبقـــه فى احيـــان اخـــرى ..

. كنا نرتجف هلعا من هذا الرجل . نرفع رؤوسنا الى السماء . نتأمل السحب . تنخفض الرؤوس الفارغة الى الارض . ونقول فى سرنا : « ربما رآنا . انه يعرف حالنا . ربما لو نسل علينا شواظا

من نار وخناجر . انه يعرف حالنا ..» ونخافه من ساكن قصر المحبب . تقول العمائم : « انه يمتطي الريح - يسكن القمر ويشرب من عيون الخلود ... » .

تكلم الكبب وهو يطوى الجريدة :

ـ ابي فوق الغمام . بشويا يا وحوش ..

لا نتكلم . نرتجف من التعب . اجسامنا الضعيفة اغتسلت بالعرق . سقط الاول . تعثرت قدمه في قميصه الطويل : تمزق القميص وتدلى كشفة زنجي كبير . تبعه الثاني وكان نائما كبغل اسكره الحصاد . وتبعت انا الزبير . سقطنا على الاسفلت . تقطعت ظلالنا على الارض . صرخ الزبير . تمزقت صفحات الجريدة تقطعت اعضاؤنا عياء على اسفلت الشارع المحترق بالشمس تحت ظلال الاشجار الطويلة . وقف الزبير وركل ولد طاهو اللعابة . ضربتني في بطني .

ـ لو سقطتم مرة اخرى . ستسقط رؤوس بعمائمها .

وضم كل منا رأس ابيه وهو يقبل العمامة المتواضعة ، ويملن المصير في سره .

ـ مرجوا على شارع محمد الخامس . اشترى انت جريدة الصباح .

حملنا الزبير . تقطعت ظلالنا واشتبكت تحت الشمس ككمشة دخان . الاسفلت يحترق . بكى الزبير . مسحت دموع الزبير بالخرقة التي تدلت من قميص ولد طاهو اللعابة . صرخ في وجهنا الزبير . رمى الخرقة القديمة ثم بصق علينا . توقفت الحركة في الشارع الرئيسي . سجدت العمائم على الارض . ضحكت وجوه الاجانب على الشرفات وخلف الواجهات الزجاجية . وقف الشرطي مصلويا في تحية . اشتريا الجريدة . خافت العمائم من اب الزبير ،

ساكن القصر المسحور وراء الغمام . شحبت الوجوه تسمرت الارجال . رسمت الشفاه كلمات الشارع طويل . سبقنا الشرطى الفرنسى الى عربة طويلة . ركبنا العربة وقوفا . كان الزبير قد استشعر راحة على اكتافنا . سقطت رؤوسنا تتدلى الى التحت ككرة فريق الكاك . وذهبت العربة تحمل اللعنة . الظلال تتقطع على الاسفلت . العصان كدودة ياكل الارض . العربة ميتة الاجزاء ككوخ رقية على . على اكتافنا اللعنة . مسخنا . الظلال حولنــا تتقطع ظلاله . الشمس محرقة . الاشجار مقلمة فى عناية . العربة تحمــل اللعنـــة .

تحلقت العمائم . امتزجت وكونت دوائر لا متناهية ، تثرثر ، تستغيث ، تسجد ، تبكى ثم تقوم قاعدة وواقفة . امتلات الازقة . تمتد النقاش والحوار . وصرخنا نحن . استيقظت العمائم . اطلقنا الزبير الى الارض . فرت العمائم . فرغت ساحة حمام مولاى الهادى . اغلقت الدكاكين ابوابها . احكمت المزلاج . تفرقنا ، نحن ، نبحث لعنتنا . من كل بيت اخذنا قطعة ثوب او سجادة . من سياج الاكواخ جمعنا الاعواد والاخشاب القديمة . صنعنــا سريرا كبيرا يرتفع على احياء الاكواخ . حلقنا بنات الحى بالمراوح التى تدفع النسمة الباردة الى وجه الزبير . اطلقنا الالسنـــة فى شدوها الجميل ، تغنى وتطرد الملل . قدمنا البخور والتعاويذ . مسحنا ارض الاحياء من الغبار . مسحنا الاكواخ والوجوه والثياب المزقة بالاصباغ والمساحيق . ولم يشعر الزبير بعنايتنا . كان نائما الزبير ينام . والظلال حولنا متقطعة لا تجتمع الى مصدرها . واختنقت الاعناق ، اكثر ، من الجوع . من كل بيت حملنا الخبز والعربى والعسل اللذيذ . الشاى كان غائبا فى ساحة الحرب . السكر ، استغفر ربك ، لا يعود . كبر حجم الجوع . تمزقت دوائر العمائم الساجدة . اختنقت الاصوات . كبر حجم المقبرة . وتفرقنا نبحث عن ظلالنا . ساكن الغمام ارسل علينا ريحا من المرض .

ذابت دوائرنا . الشمس محرقة . شاخت اجسادنا . كبرنا . هرمنا . مات بريق عيون الاطفال الصغار فينا . اختفت العمائم المتواضعة بالاكواخ وقرب النهر ، وطاردوا سراب الدنيا الاخرى .

تحلقنا ، أنا ومحبين ، حول طبق رقية على ، الكوخ ، اسود ، جاثم عليه ظلام الليل . قنديل زيت على مرفع من خشب . على السرير ، غراب يمسح ريشه بمنقاره . عينه قاسية . غراب ، آخر ، تناوم في سلهابه الاسود ، كفقيه ، قرب القنديل . الجو مختنق بالبخور . رقية على تلبس السواد ككاهنة افريقيا . لا ارث لها الا الغربان . مرت اليد ذات الاساور الكبيرة على حبات المحار الخشخاشة . تصلبت الاعضاء انتظارا . تقاومت فتيلة القنديل تحت لمسة نسيمية دخلت من باب الكوخ . غطت راسها رقية على دخلت في سوادها . نعق الغراب . قرأت سطور وجوهنا الشاحبة الشاحبة . مسحت اليد حبات المحار . نطقت في صوت بارد ومرتجف :

ـ الجبهة سارى جبة كبيرا . إلبسوا سلمان .

وطار غرابها سلمان . الارجل تتعثر بجذور الحشائش والاشجار الصغيرة الميتة . الرؤوس تقرأ سواد الليل . الصدور تلهث . نعق غرابها .

ـ هــــا هـــو ..

ـ لا . لا هـــا هـــو ..

ـ لا . مـــاشـــى ثمـــة .. هـــا هـــو ..

الشجرة متوسة على نفسها كراس طفل يتيم . كمشة اوراق على راسها . الجذع اكله جنود النمل . رائحة المفونة . لا يجرى الهواء . الاختناق . كان الجب كبيرا وعميقا . تحلقنا ورسمنا ظلالا متقطعة على سور الجب . السماء سوداء .

ـــ اذهبا انتما . انا ، ها هنا ، قاعد احرس الجب .

اشتدت الحرارة . غطى العرق الاجسام . تنفست المقبرة . الاختناق والذباب والحشرات والجوع . اشتدت الحرارة . وشدت السواعد على بعضها . كبرت الدوائر . كالبحر الغاضب ، لاختطفنا زورق الزبير . طارت الاسراب . كان يصرخ . رمانا ابوه بشواظ من نار ونحاس . انتفض المد . تنفست المقبرة . اشتدت الحرارة ضمه الجب . انطبق عليه . ضمه الليل . نعق ، غرابها ، سلمان ينادي على اخوته . حلقوا في السماء . تقوس سلمان على سور الجب ، كتفيه ، في سلهامه الاسود . امتد النهر واشرق القمر . دفنا الموتى . ومن بعيد كانت تأتينا اغاني بنات الحي . اشرقت السماء كطفلة جميلة . طاردنا ظلالنا . اغتسلنا بالنهر . استيقظ النهر العظيم . وقفنا على الضفة . رسمنا ظلالا متقطعة ، لكنها ثابتة . ابتسمنا . وجوهنا شاخت . لكن النهر العظيم ، كان ، يجــــــــرى .

القنيطرة : شاطيء الشليحات : مبارك الدريبي

محمد ابراهيم بوعلو

الصف ..

(اقصوصــة)

اجتمع الناس فى صف طويل ، الواحد خلف الاخر ، ثم ما لبث الصف أن اصبح واسما ليضا ، ثم اختل النظام اخيـــرا ، واختلط الناس كالنحل فى خلية نشيطة ...

بعضنا عرف السبب ، ولكن اغلبنا ، فيما يظهر ، لم يدرك بعد لماذا هو يصطف مع باقى الناس ..

وارتفع الصخب ، متوكلين الازدحام يتطلب شيئا من ذلك .. واخذت الجموع تموج ذهابا وايابا فى حركة البحر التى لا تعرف انقطاعا .. ثم ما لبث المختار أن عزموا الحركة ، وتنادوا على بعضهم البعض ، وخلت اماكنهم اليهم متدرمات . ولم يبق فى (دوارنا) غير بعض العجزة ، وقططنا التى لم يدفعها بعد الفضول الى أن تتبعنا كما فعلت كلابنا ..

واقبلت حافلات الشرطة بعد حين تملأ المكان باصـــوات

ابواقها .. فالتفتنا جميعا نحوها ، ونحن نردد : « لقد اقبلوا .. لقد اقبلوا .. » ولم نتساءل من هم ، فقد كان يبدو لنا حضورهم كافيا ليجعلنا نطمئن جميعا الى أن شيئا ما سيحدث فعلا ، وأن وقوفنا له ما يبرره حقا .. ولذا اشتد الزحام ، وارتفع الصياح اكثر من ذي قبل ..

ونزل رجال الشرطة فى خفة ، وهم يحملون الهراوات .. وظهر لنا جليا باننا مطالبون بالانتظام فى صف واحد ، ولكن ، كيف .. ؟ ! خلية النحل النشيطة أخذت تحدث طنينا مزعجـــا سرعان ما ارتفع الى أن أصبح شبيها بهدير مواج البحـــر .. واحتمى بعضنا بالاخر ، فقد ارتفعت الهراوات فى الهواء ، واخذت تنزل على اجسامنا ذات اليمين ، وذات الشمال .. والرجـــال المسلحون بالهراوات يشقون لهم الطريق بيننا الى ابعد نقطة يتجه اليها الجميع ، من غير ان نعرف بعد السبب الحقيقى لذلك ..

ليس فى استطاعة المرء أن ينصرف ما دام يعتقد انه فى مكان قريب من الغاية المنشودة ، انه ليتك مطمئنا الى شىء ، ولكنـــه مطمئن الى ان وقوفه هذا الطويل سيوصله الى نتيجة سارة ولاشك ، وعليه أن يصبر قليلا ليحقق ذلك ، ولكنه اذا ما هو ترك مكانه فلا يعدم من يحتله بسرعة ، ولن يحصل هو على شىء ..

ولكن بعضنا لم يستطع ان يتراجع ، فقد كان اقرب منا الى النقطة التى يشق الشرطة اليها الطريق ، ولكننا لم نكن لنتركهم يغادرون مكانهم ، لانه ليس فى استطاعتنا نحن ان نتراجع ، لان آخرين يسدون فى وجهنا طريق العودة ..

وفعلت (الهراوات) فى اجسامنا فعلها الشنيع .. وسمعت انات مهولة .. ولكن ، كيف السبيل الى معرفة السبب الذى يحتاج الى كل هذا العذاب ..؟!

ورفع بعضهم أولادهم الصغار الى أعلى علهم يتقون بهم هراوات الشرطة ، وهم يغامرون بهذه الاجسام الطرية التى اذا ما وقعت عليها الهراوات فستفتتها اربا اربا ، ولكن من يدرى، ربما تذكر اصحاب الهراوات بأبنائهم فيستحيون ، ولا يمسونهم بسوء .. ولكن « الاوامر .. » ذلك القانون الجهنمى الذى تركه لنا الاستعمار ، وما يزال يعشش فى العقول الضعيفة منا ، لـذا فالمغامرة التى قام بها هؤلاء البسطاء لم تؤت أكلها ، فما كانت العصى لتوقر كبيرا ولا صغيرا .. ولذا اختلطت أصوات البكاء والالم بايقاع الهراوات الصاعدة النازلة ..

واصبحنا كتلة وحدة من اللحم البشرى تنزل عليها العصى كما ينزل الشاقور على اللحم ليصنع منه الكفتة ، كما يقع فى أسواق احد أيام الاسبوع ..

وصاح رجل طويل بأعلى صوته : « النظام .. النظام .. انى اراهم .. » ووقع صمت نسبى فى المنطقة التى كنا بها ، ونحن نتوقع أن يضيف شيئا آخر الى كلامه .. فلقد كنا متيقنين لشدة طوله انه يعرف السبب الذى من اجله نحن هنا ، ولكننا لم نسمع بقية الكلام فقد انشغل برؤيته هو وحده ، ولم يعد يشاركنا فى اكتشافه .. ماذا تراه قد راى .. ؟ ! لا احد يعرف .. ووقعت ضجة هائلة .. فقد ظهر من جديد رجال الهراوات يدفعون الناس امامهم فى اتجاه معاكس « النظام .. النظام .. » وانتقلت هذه الكلمة على افواهنا نقولها ، وكاننا نقولها لغيرنا .. اننا مطالبون بالنظام ، ولكننا لا نصنع هذا النظام .. اننا نكتفى بالقول ، ونحافظ على الفوضى بالفعل ..

واشتدت حرارة المكان ، وانهمر العرق من اجسادنا ، وعبقت رائحتنا أنوفنا ، وكادت أنفاسنا تختنق .. وأخذنا نستسلم

الى الوراء ونحن نتراجع شيئا فشيئا ، ليتسرب الهواء بيننا لننجو من هلاك محقق .. واخذ الصف المريض يظهر للعيان ، ثم ما لبث ان أخذ ينتظم فى خط رفيع ، الواحد تلو الاخر .. وأخذنا نتبين بعضنا بعضا ، وبدا لنا أيضا أن رجال الشرطة أصابهم العياء ، وان قبعاتهم لم تعد تكتسى طابع الوقار ، بل بدا عليها أنها تأثرت بفعل الحركة والحرارة وتأرجحت فوق الرؤوس فاتخذت عدة أوضاع مضحكة ، لو كان فى استطاعتنا ان نفعل لقهقهنا من أعماقنا ولكننا كنا كمن يسترد أنفاسه ، فتركنا ذلك للذاكره تحتفظ به ليوم نكون فيه أحسن حالا منا الان ..

وصاح الرجل الطويل : « انهم شرعوا فى العمل انهم شرعوا فى العمل .. » وسألته امرأة بجانبه : « ماذا .. ؟ قل لنا .. ماذا ترى .. » ولم يجبها ، فلعله كان يحتفظ ببعض عاداته أن لا يحدث نساءا لا يعرفهن ..

غير نه لم يكن فى حاجة الى جواب فقد ظهر بالقرب منا رجل يحمل فوق كتفيه كيسا من الطحين .. وارتفع الصخب من جديد .. وما لبث الصف الطويل ان أصبح عريضا .. واخذ الناس يغادرون مكانهم متجهين الى مكان الطحين .. ولكن الهراوات ارتفعت فى الهواء تذكرنا بالنظام ، الذى علا على أفواهنا : « النظام .. النظام .. » وترجعنا كل الى مكانه فى صف لا نعرف له نهاية ..

ونشطت حركة الصغار من جديد ، فقد أخذوا يتنقلون بسرعة وخفة من مكان الى مكان .. وذهب بعضهم الى

(الدوار) ليحمل ما تحتاجه أمهاتهم ، وهكذا أخذت ترد على المكان الاغطية ، والاكل والماء .. وبدا لنا ان علينا أن نقضي الليل هنا ، فالصف الطويل لا يمكن ان ينتهي في هذا المساء وعلينا لكي نحتفظ بمكاننا أن لا نغادره .. واذا ما غادرناه لقضاء حاجة ما ، فعلينا أن نفكر بأن فرصة الرجوع اليه جد ضعيفة ، لذا فضل بعضنا ان يحدث الفوضى عله يتقدم قليلا الى الامام..

وارتفعت الاصوات ، من بيننا ، بالاحتجاج هذه المرة لتنبه الشرطة الى الفوضى .. ويبدو أن الشرطة لم تعد تحرك ساكنا ، فقد بدا لها انها ستغادرنا بعد قليل ، وعلينا نحن ان نهتم بأنفسنا ، وان نقيم النظام بيننا بأنفسنا ، وان نقيم النظام بيننا بأنفسنا ، لذا خفت حدتها ، ونشاطها الذي عودتنا اياه من قبل ..

وصاح الرجل الطويل : « ايها الاخوان قليلا من النظام انهم أخذوا يعجلون باعطاء الطحين .. انظروا هاهو كيس آخر .. » .

واقترب رجل ضئيل الجسم يحمل كيسا كاد أن يقع به .. لقد كان منظره مثيرا انه في صراع مع الكيس ، يكاد احدهما يوقع الاخر أرضا .. فقد كانت خطواته غير متزنة ، وهو في كل خطوة يخطوها تشعرنا بأنه سيقع لامحالة .. كانت العيون تنظر اليه ، ولربما بعضها فيه شفقة ، ولكن لا أحد في استطاعته أن يخف اليه لمساعدته ..

وتبعت امرأة الرجل النحيل تحمل كيسا وهي تضحك ولم تفتأ تردد : « لقد اخذوا يسرعون .. لقد اخذوا يسرعون .. أن دوركم قريب .. » ومرقت أمام الرجل النحيل الذي كان يجهد نفسه في التشبث بالكيس الابيض من الطحين ، وقد رسمت على

الكيس يدان متصافحتان احداهما بيضاء والاخرى سوداء .. وكتابات بلغات متعددة ..

وخف الرجل الطويل اليه ، وجعل الكيس يستقيم فوق كتفيه حتى لا يبقى مختل التوازن ، وشكر النحيل الطويل من كل اعماقه ، وابتعد عنا وقد انتظمت خطواته الى حد ما ..

وعندما عاد الرجل الطويل الى مكانه ، لم يسمحوا له بالوقوف فيه ، الشيء الذى أطار صوابه .. ولكنه مع ذلك ظل محتفظا برباطة جأشه ، وخفة دمه . « حسنا .. لا ترون أن تخلوا مكاني سترون .. » وشمر على ساعديه ، وهم بأن ينقض على الرجلين اللذين كانا يقفان فى مكانه .. ولكنه توقف قليلا ليقول : « الا تعرفون اننا جميعا اخوة .. الا يمكن ان ساعد بعضنا بعضا .. ان خصامنا لا يجدى اى واحد منا .. لا تنسوا ان دورنا لا يصلنا قبل صباح الغد ، واننا فى حاجة الي أن نستأنس ببعضنا البعض هذه الليلة .. اتركوا مكاني . » وقال احد الرجلين : « لسنا باخوة .. ان كل واحد يدافع عن مصلحته فقط » وأضاف آخر : « اننا اصبحنا كالكلاب .. » وطمأنه الرجل الطويل بهزات من راسه : « أنا متفق معك تماما .. ولكن اقصد اننا اخوة فى الرضاعة .. » وتعجب منه الرجل متسائلا : « وكيف .. ؟! وأجابه الرجل الطويل : « الا نشرب جميعا الحليب الذى تبعثه لنا امريكا .. اننا اذن اخوة فى الرضاعة .. » وقهقت الجماعة ، وهى تفرج عن مكان الرجل الطويل الذى انتظم فى الصف وبريق عينيه لا يخفى رغبته فى مزيد من الهزل ..

وتم له ما أراد ، فقد جلسنا على الارض ، ونحن نتخذ عدة أوضاع تناسب المقام ، فنحن يقظون كما نحن نيام ، ونحن

جالسون كما نحن وقوف .. لقد كانت وضعيتنا شاذة ، ولكنها كانت تناسب حالة الانتظار التى نحن عليها ، ولم يخفف من وطأتها ألا الجو المرح الذى يسبغه عليها صاحبنا الطويل من آن لان ..

وما لبث النوم ان استحوذ علينا جميعا ، فنمنا ، كل فى الوضعية التى وجد عليها .. ولم ندر كم من الوقت مضى علينا ونحن هكذا ، فقد استيقظنا جميعا على صوت شاحنة تشق طريقها الى مكان الطحين .. وأخذنا نتسقط أخبارها التى كانت تصلنا عبر الصف الطويل من واحد لاخر ..

واقتنعنا أخيرا بصدق الاخبار التى تناقلت الينا ، فلقد عادت الشاحنة محملة بأكياس الطحين .

وبات علينا ان نغادر المكان ، فقد ذهب أملنا فى الطحين مع هذه الشاحنة التى اتجهت الى المدينة ، فى حين عدنا نحن الى (دوارنا) خائبون .

الرباط ، 4—4—1975